القائمة القصيرة
لجائزة البوكر ٢٠١٧



الجائزة العالمية للرواية العربية
INTERNATIONAL PRIZE FOR ARABIC FICTION

إسماعيل فهد إسماعيل

السبيليات

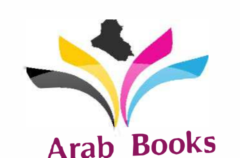
ما لم يرد ذكره من سيرة حياة أم قاسم

رواية

الطبعة الثانية
نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

السبيليات

أسماعيل فهد أسماعيل



العنوان

السبيليات

تأليف

إسماعيل فهد إسماعيل

لوحة الغلاف

عدنان البرزنجي

الطبعة

الثانية 2017

ردمك:

978-99966-94-12-7

رقم الإيداع: 2016-0486

تصميم وإخراج

نوفا بلس للنشر والتوزيع

نوفا

نوفا بلس للنشر والتوزيع

NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

www.novapluskw.com



إسماعيل فهد إسماعيل

السبيليات

(ما لم يرد ذكره من سيرة حياة أم قاسم)

«روايــة»





إلى:

مريم الحسن الفهد



كلمة للكاتب

أواخر خريف عام 1988 وردني اتصال من صديق يعمل صحفيا في جريدة الرأي العام الكويتية. خلال لقاء سابق بيننا، عرفت منك أن مسقط رأسك كان في قرية تقع جنوب مدينة البصرة العراقية.. أردت أن أختصر عليه جهده، قلت له. السبيليات. بادرني رده. اسمع.. فيما رواه.. بمناسبة انتهاء الحرب العراقية الإيرانية قبل أسابيع تلقّت جريدتهم دعوة من السلطات العراقية للاطلاع على الدمار الذي خلفته حربهم مع عدوهم إياه. تابع: اختارته صحيفته كي يكون موفدها إلى هناك. جمعوا الصحفيين العرب والأجانب داخل الصالة الوحيدة لمطار البصرة/ المعقل، ثم أركبونا ثلاث طائرات مروحية، حلّقت بنا فوق الشريط الساحلي الغربي لشط العرب باتجاهه جنوبا نحو ميناء الفاو، ذُهلنا لمشاهدة غابات نخيل أصابها الذبول، تحوّل سعفها للون أصفر فاقع، الحرب التي دامت ثمانية أعوام بأثارها المدمرة على الطبيعة. فجأة غاب اللون الأصفر، كنا نحلق فوق أرض مزحومة بالأخضر، أشبه بواحة غناء عرضها لا يتجاوز كيلومترين، تبدأ من



شط العرب وتنتهي عند مشارف الصحراء الغربية، بعدها مباشرة عادت سيادة الأصفر، تساءلت مشيرا صوب الشريط الأخضر: لماذا هذه الأرض وحدها.. لم أتلق إجابة ترضي فضولي، اكتفى أحد الأدلاء المرافقين، قال: هذه قرية السبيليات. ختم صديقي الصحفي حديثه. بصفتها مسقط رأسك يلزمك أن تكتشف السر..



1

مع بدء تصاعد وتيرة الحرب بين العراق وإيران "سبتمبر/ أيلول 1980 - آغسطس/ آب 1988" أصدرت القيادة العراقية بيانا ملزما مفاده (حرصا على سلامة مواطنينا القاطنين في القرى والبلدات القريبة من ساحات المعارك رسمنا بما هو آت ..) تتذكر أم قاسم أن سيارة جيب عسكرية حاملة لمكبر صوت دخلت الطريق الذي يخترق قرية السبيليات، الصوت الآمر. مطلوب من الأهالي كافة إخلاء مساكنهم خلال مدة أقصاها ثلاثة أيام. فإن تساءل أحدهم. إلى أين. تلقّى إجابة. المحافظات العراقية الأخرى مؤهلة لاستيعاب المهجّرين من محافظة البصرة. يُصار إلى إلحاق الرد بكلمات مطمئنة. حالة الاستنفار الراهنة لن تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر ثم تعود الأوضاع إلى ما كانت عليه. تبذل أم قاسم جهدها تتذكر أكثر. تمثّل اليوم الأول للمهلة بحالة توهان. كيف يتسنى لنا أن نغادر تاركين شكل ارتباطنا بالمكان. إضافة لسؤال هام استحوذ على ذهنها مثلما فعل بزوجها وأبنائها الثلاثة وابنتيها، ماذا عن



مصير حميرنا التسعة. ليلتهم تلك لم يعرفوا النوم، تفاجؤوا صبيحة اليوم التالي بردود أفعال غالبية أهالي قريتهم بعدما شرعوا يحزمون أمتعتهم، كلٌّ منهم لديه معارف أو أقرباء في محافظات أخرى. التمّت عائلة أم قاسم على أفرادها. ما العمل. قال الأب. أقاربنا الأحياء يتواجدون في الأحساء.. الواقع والاحتمال، يبقى أن بلوغ الإحساء يقتضي المرور عبر حدود دولية بما يعني ضرورة تزود الجميع بوثائق سفر، لكنها أوضاع الحرب.. ولا أمل بهذا الخصوص، يبقى الاختيار الوحيد.. أن نتوجه شمالا ريثما نجد أرضا تحتوينا بحميرنا. تستعيد أم قاسم تعقيبها على كلمات زوجها. لا أظننا نجد أرضا تناسبنا. يحضرها تسليمه مسبوقا بزفرة ألم. أرض الله واسعة.

قرار مغادرتهم نحو مكان لا محدد استغرقهم نهارا ثانيا، محاولة الاختيار بين أمتعة يحمّلونها على ظهور حميرهم وأخرى تبقى في عهدة المجهول استغرقت نهارهم الثالث، تفاجؤوا بسيارة عسكرية أخرى تجوب شارعهم ما قبل غياب الشمس. العقاب بالسجن والغرامة ينتظر المتخلفين عن المغادرة. لسنا من يُخالف.. تدارسوا خياراتهم في الأمتعة التي يتوجب أخذها، الملابس، الفرش، أدوات الطبخ، الوثائق الثبوتية بما يؤكد كونهم عراقيين، تدافعوا مع حميرهم المحمّلة باتجاه الشمال فجرا. تحرّكهم خلال الساعة الأولى لارتحالهم، تتذكر أم قاسم كلمات قالها ابنها الأكبر قاسم لدى اجتيازهم جسر نهر حبابة مقتربين من مدخل الطريق الترابية المؤدية لقرية الصنقر. لو كنا بلا حميرنا لاستأجرنا سيارة أقلتنا بأسرع. يبادر ذهنها يستعيد



كلمات عقّب بها ولدها الأوسط حميد. لن نجد سيارة تقلنا. لماذا. لأننا قبيلة من عشرين فردا. خنست أم قاسم وقتها لداخلها، تعجب من الحديث اللامبالي لأبنائها تجاه حدث داهم ينطوي على دمار غامض، يصلها صوت زوجها شاكيا. لا حول ولا قوة إلا بالله.. يهفو قلبها خارج إرادتها، بو قاسم يعاني مرضا خطيرا يسميه الأطباء قصورا في القلب، حذره الطبيب قبل سنوات قائلا. لك أن تقرر بين ترك التدخين أو توقع وفاة مفاجئة، اختار ترك الأولى نهائيا، لكن مرضا خطيرا مثل هذا يحتاج علاجا مكلفا مستمرا، منذ ثلاثة أشهر من حينه توقف عن شراء الدواء. لا فائدة. بدا لها وهو يقول كلمته أشبه بمن نفض يده من أسباب مواصلته حياته، سألته مرة عن نوعية الألم الذي يعانيه، ابتسم بأسى. كمن ينطحن بين صخرتين هائلتين. رغم كونها لم تدرك معنى لتشبيهه إلا إنها أومأت برأسها مدللة على تفهمها، أصغت له يكمل. الألم وجه للموت عندما ينفرد بالواحد يدعو ربه يأخذ أمانته عساه يتخلص من معاناته. تعاتبه. يهون عليك تتركني وحيدة. يجيبها. لديك من الأولاد والأحفاد ما يعوضك عنّي. يحز في نفسها أنه مات في الليلة الثالثة لرحلتهم نحو الشمال، يؤلمها بقدر ما يغضبها أنه كان مُحتفيا بها ليلتها ضاحكا آخذا الدنيا على علّاتها، نام وعندما تأخّر استيقاظه فجرا عتبت عليه كسله، لكنه لم يستجب.

من أجل أن يستدلّوا على قبره دفنوه بين نخلتين غيبانيتين متقاربتين على جانب الطريق الدولية عند المشارف الشمالية لمدينة الناصرية، قال لها ابنها الأكبر قاسم. في الضرورات تباح المحرمات.



وضّح. نظرا للظرف القائم لست ملزمة بمسألة شهور العدّة. فيما يخصها لم يرد في بالها ذلك، لكنه الحزن بالكثافة التي لا تطاق، تعتب على زوجها مفارقته لها دون استئذان، تدور بعينيها ومشاعرها على أولادها وبناتها، زوجات أبنائها وأزواج بناتها، وكذلك أحفادها وحفيداتها، فلا ترى سوى الحزن الطارئ والإحساس بالفقدان العابر، من حق الأحياء أن يواصلوا حياتهم وللموتى الرحمة، لكن حال أم قاسم غير هذا، الأمر بالنسبة إليها فقدان الأليف، لمّا تجد حالك فاقدا شخصا تسكن إليه، ولا من سبيل للتعويض، ألمك يتكاثف في غفلة منك، يصبح كتلة ثقيلة متوارية في قعر حنجرتك، رجلها ما عاد متواجدا في الجوار منها. قضوا أياما من الترحال، ريثما اجتمع الرجال على رأي واحد.. أن يقيموا سكنا عند الطرف الجنوبي لمقبرة النجف الكبرى بعدما تنبّهوا لإقامة بعض مهاجري مدينة البصرة في الموقع. ما دمت إزاء وجود مؤقت لا بأس أن تُقيم عششا لاحتواء كمّ البشر كيفما اتفق، خصّوها بعشّة فارهة مقارنة، لم تقل لهم بو قاسم ليس في الجوار ولا حاجة لرفاهية لا أوان لها. على أيامه كانت تهتم براحته.. خلال إحدى زيارته لها في أحلامها شكا لها. متى نجتمع ثانية. بعد استقرارهم بثلاثة أسابيع جاءهم من يطلب استئجار حميرهم لنقل الطابوق من دوغة لا تبعد كثيرا عن موقع سكنهم لورشة بناء على مبعدة بضعة كيلومترات، مزاولة العمل رزق من الله، نشط الأبناء وأزواج البنات، مهادنتهم في تسعيرتهم، توالت طلبات كراية حميرهم، تحسّن الأوضاع المالية للأبناء تزامن مع اعتيادهم المكان، انقضت الشهور الثلاثة التي



حددها بيان إخلاء قرى وحواضر جنوبي مدينة البصرة ولا من خبر حول اقتراب موعد العودة.

الحرب واشتداد أوارها، مرت شهور ستة، انشغال الأولاد والأحفاد بحياتهم، بدأ زمن أم قاسم ينهج رتما آخر لا علاقة له بحضور أبنائها وأحفادها حولها، بطء الوقت لدرجة التوقف وهذا الشعور الدائم الضاغط على الأضلاع، تحسّك وأنت تتنفس تلهث، الحنين إلى المكان الأول، احتشاد متواتر للذهن بذكريات تتصل كلها بهناك، الطفولة والصبا وتقدّم بو قاسم لطلب يدها. عصر أحد أيامهم جاءهم ابنها حميد بفاكهة البرتقال من سوق النجف، هفا قلبها، تذكرت زمنا مضى سبق ولادة أيّ من أبنائها، لمّا مرضتْ فوجئت بدخول زوجها حاملا أربع حبّات برتقال. من أين جئت بها. من بستان الباشا. تطلعت فيه قلقة. طمأنها. لم آخذها بالحرام. استطرد. هدية من مكي فلاح بستان الباشا. مرة أولى تذوّقت فيها البرتقال، كان ذا طعم ساحر لم تصادفه في أي فاكهة أكلتها بعد ذلك، تتذكر بستان الباشا، هو في الجهة المقابلة للشريعة حيث تلتقي بعض نسوة القرية لغسيل أواني الطعام والثياب، يفصلهم عن البستان إياه نهر الچومة المتفرع من شط العرب، يا للقلب الغبي، لماذا هذا التشظي، يحلّق الخيال ليتحقق هناك، المكان الطعم والنكهة، المكان الرؤية والتصوّر، تحس نفسها تهوّم، لو إنها عادت حيث عاشت، تطبق جفنيها، ترى زوجها يتحرّك بين غرفة الزوجية والنخلة الحلاوية قبل أن يقصد حظيرة الحمير، تسمع صوته. تعالي



يا الحبيبة. عندما يكونان وحدهما يصر على مناداتها بالحبيبة، تفتح جفنيها، هنا الآن، الكل مشغول بحياته. أيام قريتها السبيليات كانت تتحين اقتراب أيام عاشوراء كي تسافر لهنا من أجل زيارة العتبات المقدسة. أن تخصص من زمنك أياما لأداء الزيارة شيء وأن تجد حالك مضطرا أن تُقيم في محيط هذه العتبات تاركا مكانك الأول إلى ما لا نهاية شيء آخر.

مع بدء العام الدراسي التالي نشط الكبار لإلحاق الصغار بمدارس النجف، بعد غياب الصغار في مدارسهم تكرّست وحدة أم قاسم أكثر. انقضاء عامين على المغادرة، جمعت أبناءها وبناتها، صارحتهم. لا استطيع البقاء هنا. ماذا تعنين. أحس باختناق غريب. إن شئتِ أخذناك لطبيب يشخّص أسباب تعبك. لم تقل لهم ليس مرضا بمعناه، الذين يسمعونها غير مؤهلين لتفهّم ما يعتمل في روحها. أصبر يومين ثم أقرر. بعد يومين سألوها. نأخذك لطبيب. قالت لهم. لا مبرر لقلقهم، صحتها صارت أفضل. تعرفهم، ليس بينهم من يأخذ معاناتها لاغترابها على محمل الجد، اتخذت قرارها مع نفسها أن تعود لبيتها البعيد بجهدها الذاتي. لهم حياتهم وأنا مسؤولة عن حياتي. أن تقطع الطريق إلى قرية السبيليات انطلاقا من النجف ليس أمرا هينا، يتوجب عليها التفكير مليا بالكيفية إلى جانب الاستعداد، متوخّية جانب السرية وإلّا تشبث بها الأحفاد قبل الأولاد. لن نسمح لك بمثل هذه المغامرة المجنونة. توافقهم بأنها مغامرة أو حماقة بمستطاع أي منهم أن ينسبها لكبار سن مصابين



بالخرف، لكنها في حقيقتها غير قادرة على تقبّل واقع بقائها حيث هي لزمن مفتوح لا نهاية معروفة له، يتملكها هاجسها أن تقضي سنواتها المتبقية من عمرها في بيت السبيليات، وازنت اختياراتها، بإمكانها الاستغناء عن العديد من أمتعة شخصية، لديها الكثير في بيتها الأول، رغم هذا تبقى مشقّة الطريق، لم يدر في خلدها أن تلجأ لركوبٍ سيارة، لا يسمح بتحرك سيارات النقل المدنية في المناطق التي أخليت من سكانها لضرورات عسكرية، يلزمها الوصول لبيتها بالكيفية التي غادرت بها، أن تضع يدها على أحد الحمير، تسلمه قيادها، الحمار كفيل بالذهاب من حيث جاء، تشغلها فكرتها، تعرف حميرهم التسعة واحدا واحدا، تعرف طباعهم، قدراتهم على التحمل، وكذلك روح المشاكسة أو التمرد لدى بعضهم، قادها تأمّلها لاختيار حمار سمّاه زوجها يوم ولادته قدم خير.

في زمن سابق عانوا شحّا بفرص العمل لأسابيع، زوجها والقلق الذي بدأ ينتابه. لو استمرت الحال لجأنا للاستدانة. صبيحة يوم ولادة حمارهم ذاك جاءهم من طرق بابهم، سنوح فرصة كراء حميرهم، انفرج لحظتها فم زوجها بابتسامة احتفاء. هذا جحش محظوظ. خلص لقراره. نسميه قدم خير. كان ذلك قبل خمس سنوات من الآن، جحشهم المعني صار حمارا ناجزا. يا قدم خير. اغتنمت أم قاسم فرصة خلو الحظيرة إلا من الحمير، بدأت حديثها الهامس له. أنت مؤهّل لاحتمال مشقّة الطريق صبور لكنك مشاكس أحيانا. تطلعت إليه في عمق عينيه، تابعت متسائلة



بدرجة الهمس ذاتها. هل تعدني بأن ترعاني لحين بلوغنا بيتنا في السبيليات. نفذت كلماتها في ذهن قدم خير، لم يعتد سماع أحد من العائلة على مناداته باسمه عدا الأب الكبير الذي اختفى منذ زمن، استنفرت حواسه، ما الذي تفكر فيه سيدته.. بصرف النظر عما يجول في خاطرها هو رهن إرادتها، نش الهواء بذيله، قرّب رأسه لها، بسطت كفّها، مسّدت رقبته. آخذك معي شرط أن لا تنهق.

القرار وبدء الاستعداد للتنفيذ، لا تجزم أم قاسم ما الذي سيكون عليه موقف العسكر إذا صادفوها في طريق ذهابها أو لدى اقترابها من مقصدها، تدري إنها ستبذل جهدها لإقناعهم بوجهة نظرها، لكلّ حيّ ساعته التي يموت فيها سواء كان وسط الحرب أو في سرير نومه، استعدادها لمواجهة الظرف بما يتمخّض عنه شحذ لها نشاطها، توفير بعض المال لزوم سد الحاجة، التفكير بشيء من الزاد لزوم الطريق، كمية من التمر الناشف مع معمول الطحين بالزيت والسكر وعبوة ماء شرب، لم تغفل عن التزود بمنجل للضرورة، بلوغها مقصدها يستغرقها أسبوعا أو أكثر، صارت تتردد على حظيرة الحمير بشكل يومي هادفة لتأكيد نواياها لدى قدم خير. انصرم شهر شباط، باق ثلاثة أسابيع لحلول يوم نوروز، توقها أن لا يحل هذا اليوم إلا وهي هناك، وقتت لليلة جمعة، أفراد عائلتها الكبيرة يغتنمون أيام الجمعة يواصلون النوم حتى الظهيرة، بما يمنحها فرصة الابتعاد كفاية قبل أن يتنبّهوا لغيابها، الاستعداد ومن ثم الشروع بالمغادرة، أرضاها تضامن الحمير معها، لم يشرعوا بالنهيق أثناء دخولها حظيرتهم في الساعة



الثانية بعد منتصف الليل، اكتفوا بأن أصدروا حمحمات مكتومة، وضعت متاعها القليل فوق ظهر قدم خير، تلفعت بعباءتها، ألقت نظرة أخيرة على الحمير الباقية، همست. أراكم قريبا. آثرت عدم امتطاء ظهر قدم خير من فورها، قالت له. أظنك تعرف الطريق. تركته يمشي أمامها، بعد دقائق غادروا آخر الأزقة التي تشكلت وسط عشيش المهجرين، واجهوا أرضا خلاءً على مد النظر، تنبهت أم قاسم إلى وجود غابات النخيل مسافة بضع دقائق إلى يسارها، تستطيع إذا ما دعتها الحاجة للتزود بماء الشرب أن تتوجه لهناك، لفت اهتمامها توقف قدم خير عن السير مومئا برأسه إليها، قالت له. ما زلت قادرة على المشي. أضافت. إن تعبت سارعت لاعتلاء ظهرك. لكن الأخير حرن مكانه، اقتربت منه، لامست بكفّها رقبته. ما دمت تصر. ارتقت ظهره بما حفزه لأن ينطلق حثيثا. لو أعملت أم قاسم ذهنها لأدركت أن وزنها بقامتها الهزيلة القصيرة في الوقت ذاته لا يمثل لقدم خير مدعاة تعب مقارنة بحمل طابوق يقارب ربع طن يرزح تحت وطأته انطلاقا من الدوغة خارج زحمة بيوت النجف وصولا لورش البناء مسافة أميال.

إثر وفاة زوجها عافت نفسها الطعام لأيام، إلحاح أولادها وأحفادها، قلقهم عليها. إضرابك عن تناول الطعام يؤدي.. تقاطعهم. ليس إضرابا. يناشدونها أو يؤنبونها. أنت أشبه بمن يقرر الانتحار جوعا. طاوعتهم، عادت لتناول وجبات طعامها المعتاد، تعرف مدى حرصهم على صحتها، تتذكّر كلمات درج بو قاسم

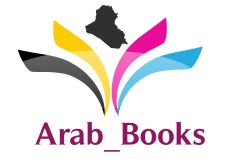


يخصّها بها. تمتلكين جسم غزالة. كانت تضحك. كيس عظام.
مع حلول يوم نوروز تكمل عامها الخامس والخمسين، تتذكر ما كانت تقوله لها أمها. ولدتكِ صبيحة يوم نوروز. البعض يهتم بالاحتفال عندما تحل ذكرى يوم ميلاده، فيما يخصّها وجهت اهتمامها لزوجها، لتتسع دائرة اهتمامها بعد ذلك تشمل أولادها وبناتها، لم تكن قد بلغت العشرين عندما ولدت ابنها البكر قاسم، تستعيد قسمات وجهه، تحس وخزة ألم في الصدر، رغم كونه لم يكمل الخامسة والثلاثين إلّا أن صلعه المبكر وكثرة التجاعيد التي غزت وجهه في السنوات الثلاث الأخيرة أضافت عشرين عاما إلى مظهره، ولدها الثاني حميد يصغر أخاه بثلاثة أعوام، ثابر، عكس أخيه الأكبر، على الدراسة، ريثما أكمل الثانوية، ساقوه بعدها إلى التجنيد الإلزامي، بقي سنتين وستة أشهر، كذلك حال ابنها الثالث صالح، يعزيها أنهم ثلاثتهم توفّرت لهم فرص الزواج من بنات حلال، ليتكاثر أحفادها حولها، شأن ابنتيها زهرة وحسنة والتحاق زوجيهما بالعائلة. يغذّ قدم خير سيره، تقول له. متى ما شعرت بالجوع أو العطش بإمكاننا التوجه إلى الأراضي الزراعية القريبة. لعله حرّك رأسه بدلالة الفهم، تجد متسعا من وقت تصمت فيه لداخلها، مات زوجها وهو لم يبلغ الستين بعد، رجال آخرون عمّروا حتى تجاوزوا الثمانين، البعض منهم قارب التسعين، ينتشر أساها داخل صدرها، تودّ لو توجّه له عتبها. لماذا تخلّيت عني. طرأ لها أن تنبه قدم خير. لا يغيب عن بالك. سكتت ثانيتين كمن يتأكد من إصغاء الآخر له. نتوجه لمثوى بو قاسم بين النخلتين قبل



متابعتنا طريقنا للسبيليات. واصلت مسايرة مزارع النخيل مبقية على مسافة نسبية تفصلها عنها، فإن احتاجت للتزود بماء شرب لها أو لقدم خير وجهته نحو زحمة النخيل، مشت فجر يومها الأول أربع ساعات متواصلة قبل أن تتوقف للراحة مدة ساعة في الجوار من أرض معشبة بما وفّر لقدم خير وجبة شهية، تابعت سيرها لأربع ساعات أخرى، اتخذت قرارها أن ترتاح ساعتين، نعمت خلالهما بقيلولة مناسبة، وزّعت مساء يومها الأول على فترتين، ثلاث ساعات لكل فترة، أوت بعدما عم ظلام الليل الأرجاء عند طرف تل معشب يشرف على نهر الفرات.




Arab_Books

2

وجّهت سؤالها له. ماذا تظن يا قدم خير. كان الأخير منشغلا بقضم بعض الأعشاب الطرية المتوفرة بالجوار، تنبه لها تردد اسمه، رفع رأسه قليلا، تراه أصغى لها، أكملت متسائلة. هل سنصل لقبر بو قاسم بعد يومين من الآن. حينها شاغلت قدم خير رغبة حادة في أن يرفع رأسه عاليا مادّا رقبته تمهيدا لكي يطلق لحنجرته عنان النهيق، تذكّر تحذيرها له أن لا يفعل، أصدر حمحمة محاصرة فهمتها أم قاسم على طريقتها، نوّهت عن ارتياحها قائلة. هذا ما خطر ببالي. حضرها بو قاسم في منامها. سعيد باعتزامكِ زيارة قبري. احتفت من داخلها. لن تكون زيارة عابرة. تأمّل بو قاسم كلماتها. لم أفهم قصدك. حضرها قرارها. سأبذل غاية جهدي أن لا أتركك وحدك هناك. لم يتريّث عند كلماتها، قال بحس الشكوى. أنا قلق تجاه إصرارك على العودة إلى السبيليات. حاججته. لا أرى مبررا لقلقك. لا يغيب عن بالك أن المكان غير آمن. وجدت نفسها تتساءل مستنكرة. أين هو المكان الآمن. قال بما



يشبه المناشدة. لكنها منطقة عمليات عسكرية يُحرّم على المدنيين.. قاطعته مستغربة. مرة أولى أسمعك تتحدث بكلمات حكومية. فتح فمه لكي ينطق لكنه لم يفعل، تسلل لأذيها صوت غير متوقع بدا وكأنه آت من ورائها، التفتت. تبددت بقية حلمها مع استيقاظها وهي تسمع نهيقا قادما من بعيد.

كانت أنوار الفجر آخذة بالانتشار ناحية الأفق الشرقي، تلفتت حولها مفتقدة قدم خير، لم تره في الجوار، تواتر خفقان قلبها، هل ارتكبت خطأها الأكبر عندما أغفلت أن تربطه في الجوار، استبد بها حزن ثقيل صاحبه شعور طارئ بالتقصير، خنست مقهورة في مكانها، ما الإجراء الواجب عليها اتخاذه الآن، مرت وهلة حيرة أعقبها سماعها حمحمته كمن يقول لها. أنا هنا. غمرها ارتياحها، رددت مستنتجة. أنت الذي نهقت في البعيد. لم يحر جوابا، أحنى رأسه يتشمم الأعشاب عساه يجد ما يستسيغه. دبّت حيويتها في جسدها، هبّت واقفة. علينا متابعة سيرنا. مشيهما الحثيث جنوبا، قالت له معتذرة. إن بعض الظن إثم. تراه فهم قصدها، تابعت. استيقظت ولم أرك عندي، خيّل لي أنك هربت. بعد حوالي نصف ساعة قالت له مخبّرة. زارني بو قاسم في المنام. حمحم قدم خير محركا رأسه وهو يسمعها تذكر اسم ولي نعمته الغائب، استطردت. صارحني بأنه غير مرتاح لوجوده داخل قبره في مكانه القفر، وعدته لا أتركه هناك. سكتت برهة قصيرة أنهتها مُتسائلة. ما الذي يلزم فعله بهذا الخصوص. قبل مغيب شمس يومها الثاني شاهدت دربا



ترابية تتوسط المزارع، سلكتها لتصادف فلاحا شابا يعمل على تنظيف حقله من الأعشاب، ترجّلت عن ظهر حمارها، ألقت تحيتها، رفع الشاب رأسه، تطلع في وجه القادمة. متى يتيسر لي بلوغ مدينة الناصرية. أعمل الفلاح ذهنه قليلا. لو تابعتِ سيرك عشر دقائق وصلت مشارف الطريق الدولية. أصغت له يكمل. لو ركبت سيارة أجرة وصلت مركز مدينة الناصرية خلال ساعة. لم تقل له. ماذا لو أني لم أركب سيارة. تظنه تنبه لوجود الحمار. أما في حالتك هذه.. أبقى جملته معلّقة. تستغرقين نهارا كاملا. في بالها أن تساير الطريق الدولية لولا خشيتها من مصادفة سيارة دورية، أو مفرزة تفتيش، لتواجه بسؤال مُنفر. إلى أين. في حين سألها الشاب متعاطفا. أين تبيتين ليلتك هذه. لم تُحر جوابا في اللحظة، غافلتها زفرتها، تذكرت واحدة من مقولات زوجها. أرض الله واسعة يا ابني. شدهها بأن عرض عليها. تستطيعين قضاء ليلتك في بيتي. رفع ذراعه، أشار لامتداد الدرب. القرية التي أقطنها مبعدة دقائق من هنا.. ستسر زوجتي باستضافتك.

حارت بردّها، طوال حياتها لم يصادفها موقف مثل هذا، هل تملك حق أن تعتذر عن قبول دعوته، تنمّل جسدها، تذكرت حاجتها للاستحمام إثر افتراشها الأرض ليلة البارحة، تبادر لها أن تقول راجية عساني لا أثقل عليكم ولم تفعل، سلّمت لعرضه. جزاك الله خيرا. مشت إلى جانبه تاركة قدم خير يلحق بهما دون أن يفوّت فرصة قضم أطراف الأعشاب التي تصادفه، لم يخف



الشاب دهشته. ماذا لو هرب حمارك. أجابت واثقة. ليس ما يدعوه لأن يفعل. ابتسم إزاء ثقتها، قال. اسمي صالح. تهلل وجهها. هذا اسم ابني الأصغر.. هو في مثل سنك. تنبهت عرّفت بنفسها. أنا أم قاسم. سادت ثواني صمت أنهاها صالح. كيف وصلت لهنا. أحست صعوبة بالرد على سؤاله بالشكل المباشر، قالت. أنا قادمة من النجف. لهج الشاب. حيا الله ضيوف آل البيت. وضّحت. ذاهبة لزيارة قبر زوجي. أبدى اهتمامه لأن يسمع، لم تجد حرجا في أن تروي له، التوقيت غير المتوقع لوفاة الزوج، حدث ذلك قبل أكثر من سنتين لكن هذا الشعور الحاد باليتم ما زال يؤلمها، ريثما توصّلت لقناعتها، بيتها الكائن في السبيليات مؤهل لاحتوائها. نوّه صالح بفضوله. ما الذي تعنيه سبيليات. اسم القرية حيث وُلدت أم قاسم وعاشت طوال سني حياتها..

خلال لحظاتها الأولى استغربت زوجة صالح عودة الأخير بصحبة امرأة، لكنها سرعان ما استوعبت الحالة. حيا الله من زارنا. أثار اهتمامها تقبّل طفلها الذي لم يكمل عامه الأول بعد للمرأة الوافدة وتعلّقه برقبتها كما لو إنه يعرفها طويلا، لحظتها قرّب زوجها فمه من أذنها همس. امرأة صالحة قادمة من العتبات المقدسة. حتى لا يخالج الزوجين الشابين شكّهما باستغلالها كرمهما قالت أم قاسم. لن أثقل عليكم طويلا. تابعت موضحة. مضطرة لأن أغادركم فجرا. عندما وجّه صالح قدم خير لدخول حظيرتهم عانى الأخير إحراجا وقلقا لا طاقة له بهما جراء وجود بقرة هائلة الحجم بقرنين



بارزين استقبلته بنظرات حاقدة، سبق له أن خاض صدامات مع أبناء جنسه، يلجأ الحمير في الغالب إلى الاستعانة بقوائمهم الخلفية لرفس منافسيهم بما يمنح الواحد فرصة الاستعداد أو الابتعاد، لكن البقر يعمدون للهجوم نطحا برؤوس ذات قرون، انتظر مغادرة صالح حظيرته لحق به، وقف في الساحة الترابية غير بعيد عن باب المنزل، فاجأه صالح خاطبه نافضا يده. ما دمت تصر.. لم يوف جملته، غاب داخل حظيرتهم، عاد حاملا حزمة عشب وسطل ماء للشرب. أشرقت شمس اليوم التالي على أم قاسم وقدم خير وهما يغذّان سيرهما نحو الجنوب بمحاذاة الطريق الدولية، كانت أم قاسم لا تني تتطلّع صوب النخيل إلى يسارها، إن حالفها حظها بلغت موقع النخلتين المنعزلتين عما سواهما حيث مثوى زوجها، تدّعي إنها تعرف الكثير عنه عندما كان حيا، أما وقد فارقها بشكل أبدي.. طوال زمن غيابه دأب يزورها في المنام. لقاؤهما على الرغم من غرابته يمثّل تعويضا جزئيا، تعود بذاكرتها لصباها، كانت وحيدة أبويها، البيت الذي نشأت فيه يقع وسط مزارع نخيل مترامية عائدة لآل النقيب تقع في الجانب الغربي من قرية السبيليات، تتواجد في وسطها مقبرة مهجورة منذ عقود، تعارف الناس على تسميتها مقبرة عز الدين نسبة لمقام رجل صالح يحمل ذات الاسم ما زالت جدرانه قائمة هناك، كان أبوها كبير فلاحي آل النقيب، تتذكر بيتهم الذي يتألف من كُبر واسع لاستقبال الضيوف وآخر أصغر لإيواء أبويها، وصريفة لها، رأت زوجها للمرة الأولى لما كانت في السابعة عشرة، جاء مع حميره لنقل كمية تمور من مكان تخزينها وراء بيتهم



حتى مرسى الزوارق الخشبية في نهر الچومة، لعلهما تبادلا نظراتهما دون قصد في البدء، لعلها صارت تبيّت لمغادرة المنزل حين يكون في الجوار، بعد انتهاء موسم جني التمور تقدّم لخطبتها.

تتوارد لذهنها كلمات خصّها بها أبوها في حينه. شاب طيب يمتّ لنا بعلاقة قرابة عائلية من ناحية أبيه الإحسائي. بصرف النظر عن احتفائها الداخلي بالحدث لا تملك أن تقول لا، الزواج شأن يقرره أبوها وأمها، نعمت بفترة خطوبة امتدت لشهرين، تتذكرهما بانشغالهما هي وأمها بأمور التجهيز للزواج، بعد اسبوعين من اقترانها أخذها زوجها مع والديها برحلة للعتبات المقدسة، كان ذلك في مطلع عام 1946، في مطلع عام 1948 ولدت ابنها البكر قاسم، ليتوالى بعده الأبناء والبنات، إثر ولادتها ابنتها الصغرى حسنة دعت أم قاسم ربها أن يقفل رحمها كي لا تحبل أكثر رأفة بزوجها ومشاق توفير متطلبات الحياة، استجاب الله لدعائها، في مطلع عام 1958 أصيب أبوها بحمى حادة تسببت بوفاته، لم تستغرب أم قاسم وفاة أبيها لأن الأعمار بيد الله لكنها حتى يومها هذا بقيت حائرة تجاه ما آلت إليه حال أمها بعد وفاة الأب، عاشت ما يشبه شرود ذهن متصل، تقطعه كمن يستجيب لمناداة أحدهم بالكلمة الدالة على الامتثال "لبّيه"، قبل أن تعاني جزعا يغالبه شعور بالضياع. ما بك يا أمي. تجيبها الأخيرة مُحرجة. سمعت صوت أبيك يطلبني إليه.

توفيت أمها بعد عام من وفاة أبيها نتيجة تعرضها لنوبة حمى



شبيهة، مصاب أم قاسم بفقدان زوجها أمر جلل أيضا سواء في حينه أو بعد مرور عامين، لكنه في حقيقته مغاير لما عانته أمها، هل تحيل سبب ذلك إلى عامل الألفة بين كائنين اعتادا أن يكونا معا لدرجة عجز واحدهما عن مواصلة الحياة نتيجة غياب ثانيه. تثاقلت خطوات قدم خير بعد ساعتين من السير الحثيث، تبادر لذهنها.. جراء صلابة الأرض الموازية للطريق الدولية إضافة لضجيج محركات السيارات العابرة. لك حق. قالت له أم قاسم مضمنة تفهما يشوبه الاعتذار، بادرت ترجّلت عن ظهره، تلفتت الجوار، رأت على مبعدة دقيقتين حرش قصب وسط أرض منخفضة إلى يمين الطريق، قالت له. ما رأيك لو ذهبنا. تراكض من فوره بما استدعاها لأن ترفع صوتها عاتبة. لم أعد صبيّة قادرة تسابقك. بلغت الحرش، زحمة القصب والأعشاب وسط بقعة أرض منخفضة مغمورة ماء تمثّل امتدادا لترعة في الجوار، رأته ينشغل بقضم أطراف الأعشاب ما بين سيقان القصب، اقتربت محاذرة، مالت على الماء، أخذت غرفة بكفها، رفعتها لفمها، دوّرتها في فمها تتأكد من كونها صالحة أم آسنة، طاب لها أن تبتلعها، قالت. بإمكانك أن تشرب منه. تفهمه إذا أراد إبداء رضاه حرّك رأسه بدلالة الامتثال.

بعد غروب الشمس بانت لعينيها الأنوار الصفراء لمدينة الناصرية عند خط الأفق جنوبا، تواتر خفقان قلبها، ستتيسر لها فرصة إسماع صوتها لزوجها عن قرب، سوف تجلس أمام قبره، تخاطبه، تشكو له قسوته جراء استعجاله الرحيل، لا بأس أن تحدثه



عن سكن عائلته الكبيرة، أبناء وبنات وأحفاد غير بعيد عن العتبات المقدسة، أطلقت زفرة أسيانة، خاطبت قدم خير. يتوجّب علينا أن نعثر على النخلتين اللتين.. لم تكمل جملتها، خيل لها إن قدم خير فهم قصدها سرّع مشيه، تتذكر جيدا أن النخلتين حيث دُفن زوجها متجاورتان متقاربتا الارتفاع مشتبكتا السعف، تزاحمت السماء بغيوم رمادية حجبت النجوم وكرّست الظلام أكثر، أن ترى أنوار مدينة الناصرية عن بُعد لا يعني إضاءة المكان حيث هي، اختلطت عليها أمور النخيل، بدت لها متقاربة الطول مشتبكة السعف كلها، ثقل رأسها بصداعها. أظنك تعبت أيضا. أصدر قدم خير حمحمته، عادت قالت له شاكية. أنا تعبت. أخذها باتجاه أكمة قريبة. لأنك حددت هذا الموقع.. قالتها ممتنّة، اختارت فسحة أرض نظيفة، فرشت دثارها، توسّدت ذراعها آملة زوال صداعها إذا ما نعمت بقسط راحة بعيدا عن ضجيج السيارات العابرة، في حين سرح قدم خير في الجوار، استعصى عليها نومها، بقيت تتقلب فوق دثارها.

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل استيقظت على برودة تصافح وجهها، تنبهت إلى إن السماء آخذة تنثّ مطرا رذاذا من نتف غيوم عابرة، تفاءلت خيرا، ندّت عن قدم خير حمحمات احتفاء بقطرات المطر، اقترب ليبرك عند قدميها، قالت له. أنت طيب. مرت دقائق تبددت إثرها نتف الغيوم، لتعم إضاءة فضية باهتة لملايين النجوم، أحست بخدر النعاس يأخذ بجفنيها، أسلمت نفسها للنوم ثانية. من أين لنداء ابنها حميد يصل إليها، تدري أنها ابتعدت



عن عائلتها منذ ثلاثة أيام، راوحت وسط تهويمتها ليشملها وعيها، فتحت عينيها، رأته ينحني عليها. يا أمي. خفق قلبها بفرح غامر، هبت جالسة، حضنته لصدرها، تنبّهت لوقوف ابنيها قاسم وصالح عند قدميها، فردت ذراعيها، هل تسأل أولادها. كيف عثرتم علي، وهي تعتدل جالسة رأت سيارة أجرة في حالة انتظار، قال لها قاسم. يأسنا من العثور عليك، دخلنا البصرة، وصلنا لعند منطقة المعقل، منعنا العسكر عن التوجه جنوبا، اضطررنا لقضاء ليلتنا في الزبير محاولين الذهاب للسبيليات لكن تواجد العسكر في كل مكان، عدنا خائبين، أثناء مرورنا من هنا تنبّه صالح لوجود قدم خير. حانت عنها التفاتة عرفان لحمارها، كان الأخير سعيدا بحضور العديد من أولياء أمره، لكنها سعادة منقوصة، لماذا لم يأتوا بحميرهم معهم.

ألحّوا عليها. عودي معنا. قالت لهم. هناك أمران.. تركت جملتها معلقة، سألها ابنها حميد. ما هو الأمر الأول. يلزمني معرفة موقع قبر أبيكم. خطوات من هنا. تابع. توقفنا عنده قبل قليل. أشار. لو رأيت النخلتين المتقابلتين. حددت بصرها بالاتجاه. دبّت حيويتها في جسدها. أذهب إليه. رفعت صوتها. يا قدم خير. لفت ابنها صالح اهتمامها إليه. ماذا عن الأمر الثاني. اختصرت ردها. تعرفه في حينه. سبقت أولادها إلى حيث موقع القبر، بدأته بالتحية. أنت تعرف محبّتي لك ولهفتي عليك. أصغت برهة أشبه بمن ينتظر ردا، استطردت. بناء على طلبك لن أتركك هنا. التحاق أولادها بها، قالت لهم. أبوكم يعاني من وجوده في هذا القفر. أردفت. لا



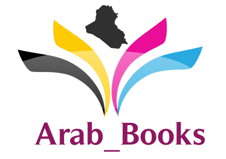
يريد البقاء هنا. تبادل أبناؤها نظرات متواطئة بينهم، سألتهم. ما الذي تبيتونه. انبرى صالح. اتفقنا أن نعود في وقت لاحق بصحبة شيخ دين كي ننقل رفاته لمقبرة النجف. تريث ذهنها لحظة معرفتها بقرارهم، قالت. لم لا نستعيد رفاته الآن. عاد أولادها تبادلوا نظراتهم بينهم، يدهشهم إن ذهن أمهم يعمل بطريقة مغايرة لما هو مألوف، لم تدعهم نهب تشتتهم، أشارت نحو الأفق حيث أطراف مدينة الناصرية، قالت. يذهب واحد منكم بسيارة الأجرة ويعود مصطحبا شيخ دين. استجاب ابنها الأكبر قاسم. حاضر. نبهه الآخر. تلزمنا مسحاة وقماش أبيض.

استغرق قاسم ساعتين عاد مصطحبا شيخ دين، الحذر خلال الحفر، فوجئوا بتحلل الرفات، ليس سوى عظام أطراف وبقايا عمود فقري وجمجمة، انهى شيخ الدين قراءة آيات قرآنية وأدعية، قال. تحلل جسد المتوفّي جراء نزيز مياه جوفية للأرض السبخة. سارع الأبناء جمعوا ما تبقى من أبيهم لفوّها بقماش الكفن، واساهم شيخ الدين قائلا. إكرام المتوفّي بنقله لمقبرة النجف الأشرف. بادرت أم قاسم وجّهت سؤالها له. ماذا لو كان المرحوم أوصى بدفنه في مسقط رأسه. لم يتأخر رجل الدين إجابته. وصيّة المتوفي مُلزمة. قال لها قاسم. يا أمي. قال لها حميد. يا أمي. قال لها صالح. يا أمي. قالت لأبنائها. أنتم في قلبي، لكن روحي وروح المرحوم والدكم لن تطيب لهما الراحة إلا في السبيليات. سألها ابنها الأصغر صالح. من أين جئت بمسألة مسقط الرأس. هذا ما قاله



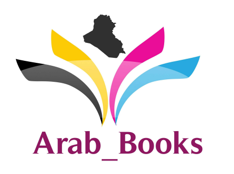
لي أبوكم منذ ليلتين. ود ابنها الأكبر أن يصرّح. المجانين وحدهم. أدركت ما دار في ذهنه. تنتهي الحرب، تعودون للبيت، تجدون أمكم بانتظاركم. استبدت بهم حيرتهم، حذروها مجتمعين. أنت بصدد دخول منطقة عسكرية محرمة على المدنيين. قالت لهم. لا تقلقوا بشأني. توسلوها. ليس بوسعنا أن نتركك تذهبين هكذا. ابتسمت بمحبة الأم. إن شئتم تعالوا معي. هل أُسقط في أيديهم فانعقدت ألسنتهم، عانقتهم واحدا واحدا. أراكم على خير. غافلها ابنها قاسم دسّ حفنة أوراق مالية في جيبها. حضنت لفّة قماش حاوية بقايا عظام زوجها. تتوجب علينا متابعة سفرنا يا قدم خير. نشط حمارها سالكا طريقه جنوبا، بينما شيّعها أبناؤها بنظرات مخذولة، ابتعادها كفاية، التفتت، رأتهم ما زالوا واقفين، لوّحت لهم. نلتقي..




Arab_Books

3

لو واجهها أحدهم سائلا. ماذا تخفين في لفافة قماش تحضنينها لصدرك. لن تسعفها جرأتها.. ما تبّقي من رفات زوجي. معرفة الآخر بالأمر تعني إطلاق حكمه. هذه امرأة مخبولة. بعد وفاته ومراسم دفنه التي تمت على عجل واصلوا سيرهم شمالا، وقتها شملها شعور طاغ بالفقدان، رغم هذا لم تراودها فكرة نقله من مكانه ريثما راودها حلمها إيّاه، أن يشكو لها معاناته شعور غربة دفنه في مكان قفر، الحال الآن هي لا تملك جوابا عن جدوى حملها لعظامه لولا شعورها بحيازة شيء يخصّها، ويقينها بإمكانية مبادلته الحديث متى شاءت، ولا حجّة له بأن لا يكثر من زياراته لها في المنام، يستعيد ذهنها ادعاءها لما كانت نيّة نقل جثمانه لمقبرة النجف، أوصى بأن يُدفن في مسقط رأسه، توقها لبقائهما معا بصرف النظر عن الكيفية، تعويضا عن ارتكابها الادعاء إياه، تعده أنها تحرص على تبليغ أولادهما حال توفر فرصة اجتماع شمل الجميع بوصيّة مفادها.. بعد التحاقي بأبيكم لكم أن تنقلوا جثمانينا لمقبرة النجف. واصلت رحلتها جنوبا، خط



الأرض الزراعية على اليسار منها، ارتأت أن توزع وقتها حسب نظام وردياتها، لم تتنبّه لتقدّم الليل لولا تواتر خطوات قدم خير، لا تجزم إنه في أحسن حالاته، يلزمها مراعاة إمكانيات هذا الكائن المتكفّل بها، تلفتت جهاتها، رأت حرشا. نذهب لهناك. تلقّى قدم خير أمرها باحتفاء، دبّت حيويّته في حوافره، ركض بها، يعجبه من سيدته إنها قادرة على قراءة أفكاره.

بعد يومين من سير حثيث رصدت نشاطا لافتا لآليات عسكرية متنوعة، بدءا من سيارات جيب وناقلات جند متفاوتة الأحجام، انتهاء بشاحنات ضخمة متعددة العجلات تحمل دبابات أو مدافع عملاقة في حين قلّت أعداد سيارات نقل الركاب، كانت بدأت توغلها داخل حدود محافظة البصرة، لم يقلقها إنها باتت غير بعيدة عن مسرح معارك حربية بقدر ما شغلها احتمال اعتراضها من جانب إحدى دورياتهم. إلى أين. ما الرد المناسب عندما تواجه بمقولة صادمة. منطقة عمليات يُمنع تواجد مدنيين. ليس أمامها سوى تحاشي رؤيتهم لها ما دامت هذه الرؤية تعني مساءلة مهينة يعقبها إبعاد حتمي، شطح خيالها، ماذا عن مصير قدم خير لو صادفها العسكر وقرروا اعتقالها. أمعنت تفكيرها مليا. تتابع مشيها جنوبا باختراق مزارع النخيل غربي شط العرب عند الحدود الفاصلة مع الصحراء غير بعيد عن طريق عريضة مسفلتة حديثا تبدأ من مفرق باب الزبير لتمتد حتى الفاو على ساحل الخليج، قبل أوامر الإخلاء كانت طريقا ضيقة ملتوية، عمدوا لتوسعتها والحرص على



استقامتها تسهيلا لانتقال آلياتهم العملاقة، تتنصت للجهات، فإن التقطت أذناها دوي محرّك سارعت توغلت وسط النخيل، توارت في الداخل ريثما يزول خطر انكشافها، أدرك قدم خير حساسية الموقف، صار يستجيب مهرولا نحو عمق المزارع لدى لكزة من كعب قدم راكبته أو سماعه همسة تحذير.

مساء يومها الثالث اضطرت لأن تتوارى مع قدم خير وراء تلّة صغيرة داخل أحد البساتين نتيجة توالي مرور آلياتهم على الطريق بين دقيقة وأخرى، حلّ الليل، تنبهت إلى أنهم لم يستعينوا بالأنوار الكاشفة، لعلها ضرورات الحرب، طال انتظارها، غلبها نعاسها، استسلمت للنوم. تراءى لها زوجها، كان يقف أمام باب بيتهم، في بالها لو تسأله أسباب غيابه الطويل، لو عاتبته، ليس من عادتك أن تغيب ولا تهتم بما آلت إليه حالتي، إن كان ولا بد خذني معك، رسخ في دخيلتها إنه ابتسم لها، أحست به يوجه يده نحوها باحثا عن كفها، سلمتها له، سمعته يهمس لها عاتبا. أنت ترهقين نفسك أكثر من اللازم. أجابته. حضورك وحده كفيل.. لم تستطع إتمام جملتها، تلاشى من أمامها مبقيا على ملمس يده لكفها. تناهت لسمعها حمحمات قريبة، فتحت عينيها، كانت مستلقية بمواجهة سماء الفجر، في حين وقف قدم خير عند رأسها، حمّلت صوتها صيغة اعتذارها. أظنني نمت طويلا. اطمأنت لوجود لفافة عظام زوجها عندها قبل أن تعتدل جالسة، أصاخت سمعها نحو الجهات، لا وجود لدوي آليات عسكرية، سمعت هديل حمامة قريبة، تأمّلت



موقعها، هنا خصوصية المكان البصري، التحام مزارع النخيل ببعضها كما لو كانت بستانا واحدا، هذا الاشتباك المذهل لآلاف مؤلفة من الجداول والترع مستفيدة من ظاهرة المد والجزر.

يخبرها حدسها إنها ليست بعيدة عن بيتها، بإمكانها إذا تابعت طريقها الآن أن تبلغه عصرا، فإن راعت معوقات مرور آليات عسكرية وصلته مع مغيب الشمس، غافلها قلبها واتر خفقانه داخل صدرها، حنو البيت ورائحة الأشياء، لم تسأل نفسها، على افتراض معرفة العسكر بوجود شخص طارئ، اقتحامهم باب البيت. من أنتِ. ما الحجة التي أبرر بها وجودي. نشط ذهنها تولى صياغة سؤالٍ آخر توقعت صدوره عن أي منهم. كيف وصلت لهنا دون أن تعترضك أي من نقاطنا الأمنية. نمّ فمها عن ابتسامة تسليم واهنة. الأمور في أوانها. التفتت لقدم خير. أدركنا الوقت. ارتقت ظهره، لا حاجة بها لأن تدلّه الطريق، نشط الأخير متوجها جنوبا. بعد ساعة مشي تغيّر لون سعف النخيل، صار أصفر مد النظر، تنبّهت إلى انتشار نبات الحلفاء في كل الأرجاء، تدري إنه الإهمال، جفل قدم خير للمرة الأولى، جفلت بدورها قبل أن تسأله. ما بك. أصدر حمحمة احتجاج، رصدت حركة وسط زحمة الحلفاء القريبة قبل أن يظهر لعينيها رأس خنزير بري بلون ترابي وهو يفر مبتعدا. مزارع مترامية مهجورة لزمن طويل بما يسنح للحيوانات الوحشية أن تتوافد لتعشش وتتكاثر تعويضا لغياب البشر، حال ماثلة ولا تستبعد وجود ذئاب، انحنت قليلا للأمام، همست. ماذا تظن يا قدم خير. لم يستجب



بحركة رأسه، عاود سيره متئدا، هدأت نفسها قليلا، الحيوان أكثر فطنة من الإنسان، يشعر بالخطر قبل حدوثه، لاحظت يباس الترع والجداول، لا يجف الماء دون فعل فاعل، الحرب بحد ذاتها لا توقف جريان شط العرب، استبد بها قلقها. أريد رؤية الشط، عساه لم يتعرض لمكروه خارج الحسبان، قالت لقدم خير. نتوجه للشط متجنبين رؤية العسكر.

بدلا من متابعة السير جنوبا سلكا دربهما شرقا مخترقين غابات النخيل باهتة السعف، كان قدم خير بين الفينة والأخرى يصدر حمحمة تنبيه أو تحذير بما يعني وجود حيوان في الجوار، لا وقت لدى أم قاسم كي تجزع، لكنها من باب الاحتياط لجأت لمنجلها، اقتطعت غصن شجرة توت، برت نهايته، تستطيع استخدامه إذا دعتها الضرورة. انقضت ساعتا مشي، لاح لها طريق أبي الخصيب مخترقا مزارع النخيل مارا بعشرات القرى. اشش. همست بها لقدم خير، لزم الأخير مكانه، خنست صوب الطريق، لا وجود لدوي شاحنات، أو أصوات بشرية، سمعت نعيب غراب، حرّك قدم خير رأسه، ذكّرته. لا تنهق. اكتفى أصدر حمحمة تشبه الشخير، ترجّلت عن ظهره، أوصته. تنتظرني هنا، لن أغيب طويلا. اجتازت الطريق الاسفلتية بخطوات سريعة، دخلت بستان النخيل المواجه، تجزم إن شط العرب لا يبعد كثيرا، لامست وجهها نسمة ريح طرية قادمة من ناحية الشرق، تشمم أنفها زنخ رطوبة الشط، تنفست الصعداء. هو هناك، لن ينهوا وجوده. مرت دقائق، سمعت غمغمات رجالية، سارعت توارت وراء



جذع نخلة، أنصتت للهواء المحيط، غمغماتهم هي هي، اختارت أيا من الجداول الجافة بما يساعد على مداراة قامتها لدى تقدّمها نحو الشط، حاذرت خطواتها لدقائق، الرطوبة وزفر الماء آخذان بالحضور أكثر، الغمغمات كذلك، تجرأت رفعت رأسها، فوجئت بوجود خيم صغيرة خاكية اللون مموهة كما أغصان الأشجار، رأت عددا من الجنود يتسكّعون حول خيمهم، رأت شط العرب يتطامى بمياه زرقاء ضاربة للخضرة في الخلفية من موقعهم، هدأت نفسها، قفلت عائدة.

لدى رؤيته لها هز قدم خير ذيله مرحبا، هدفت لأن تشركه معلومتها. شطنا طافح بالماء لكن الجداول جافة. امتطت ظهره. نكمل طريقنا. نشط ماشيا. أنت تعرف كيف تصل للسبيليات. توغّلا في عمق المزارع تحاشيا لمصادفة العسكر، بعد ساعة رأت فسحة سماء خالية من سعف النخيل، لا بد إنها بصدد بلوغ أحد الأنهار الكبرى، سارع قدم خير خطواته قبل أن يتوقف عند حافة أخدود عميق، تلفتت أم قاسم جهاتها لعلها تتعرف هذا النهر الذي تحوّل جراء حبس الماء عنه لأمد طويل إلى خندق عملاق طارئ على المكان. تحضرها ذاكرتها، بامتداد شط العرب من العشار وصولا للسبيليات هناك خمسة أنهار كبرى، الخورة، السراجي، مهيجران، حمدان، وأخيرا حبابة، تدري إنها تجاوزت مزارع يرويها نهر الخورة لمّا ماشت نهاية الخط المزروع عند حد الصحراء، تشحذ ذهنها، لو صدق حدسها هي أمام نهر السراجي، تطلعت إليه، رأت ساحله مزدحما بالقصب والبردي، رصدت وجود فسحة أرض متشققة



نتيجة اليباس، في القلب منه، مع مساحات محددة متباعدة تحوي بقايا مياه وأوحال، ساحله المقابل مزدحم بالقصب والبردي أيضا، غافلتها زفرتها مسبقة لسؤالها. ما رأيك. شخر قدم خير، تقدّم نحو منحدر النهر، بدأ ينزل متثبتا من مواقع حوافره، أهابت به. أحسنت. بلوغهما عمق النهر، عانى قدم خير صعوبة لدى ارتقائه الساحل المواجه، بما دعاها لأن تترجل، اغتنم الأخير الفرصة بدأ يقضم أطراف نبات لبردي. خُذ راحتك. قالتها متفهمة، ارتقت الجرف، مشت خطوات، من حق جسدها أن ينال قسط راحة، استلقت على ظهرها، سماء البصرة ما عادت مثلما كانت، تراها كابية تدعو للقنوط، تدري أنها الحرب ولا تجد سببا يدعوهم لقتل الأخضر بتجفيف الأنهار، إن كان عدوك يُرابط في العمق من أراضيه الكائنة وراء شط العرب شرقا ما الذي يدعوك لأن تقتل الحياة في أراضيك الكائنة وراء ظهرك غربا. إثر ساعة مشي وصلا خندقا آخر، نهر مهيجران، تمنّت لو إنها فهمت كيف جففوا هذه الأنهار العملاقة، استغرقا نصف ساعة لبلوغ خندق ثالث، نهر حمدان، تكاثف أساها أكثر لحظة محاذاتها بستاناً مختصّاً بزراعة الفاكهة، أعواد ملتوية جافة لونها بني يميل إلى السواد، كانت على أيامها قمريات عنب، في حين تمثلت شجيرات المشمش والبرتقال والتفاح والليمون عصياً رمادية عارية، رأت الموز وقد آل أشبه بخرق قماش خاكي مكوّمة على الأرض، تتطلع لسعف النخيل ذي اللون الأصفر الكابي، تعرف عن النخلة إنها جبارة باحتمالها، ربّتت على عظام زوجها، أشركته حيرتها. كيف نحتمل العيش وسط الخراب. لاح لها حرش من



القصب والبردي، تباطأت خطوات قدم خير ريثما توقف، ترجّلت. أظنك تعاني الجوع. بادر حرّك رأسه، مشى نحو الحرش.

هفا قلبها لحظة بلوغها خندق نهر حبابة. لم تدار لهفتها. أوشكنا نصل. ركض بها قدم خير، ناشدته. لا تندفع كثيراً. عاد أبطأ سيره. يلزمنا أن نكون حذرين، احتمال مصادفة عسكر. من أين. وإن تعاطفوا مع كِبر سن أم قاسم. عودي من حيث جئتِ يا خالة قبل أن تعرضي نفسك للمساءلة. سكنتها قناعتها. لو وصلت بيتي دخلته قبل أن يعترضني طارئ منهم عرفت كيف أبقى. لكنها سرعان ما تريّثت أمام سؤالها لنفسها، ما الذي أقوله لهم إذا اقتحموا باب المنزل. ربّتت على لفّة عظام زوجها. الله الحافظ. تنبّهت لتواري الشمس وراء مزارع النخيل غربا، وجّهت خطابها لقدم خير. نسرع لمقام عز الدين نحتمي به. بلغا مقصدهما بعد الغروب، تطلّعت حولها، لا وجود لصرائف فلاحين كانت مُقامة في الجوار، رأت طريقا ترابية عريضة تمتد مستقيمة حتى تخوم الصحراء، نما لوعيها.. العسكر مهّدوا طريقا لمرور آلياتهم. ترجلت من على ظهر قدم خير، كاشفته. أحتمي بجدار المقام أنال بعض الراحة ريثما يحين وقت ذهابنا للبيت. قالتها كما أمر مفروغ منه، أردفت مشيرة للنخيل. تستطيع أن تجد ما تأكله. حث قدم خيرخطوه توارى وسط النخيل، أرهفت سمعها للبعيد، لا أثر لدوي محركات، أطلقت زفرة ارتياح، سارعت للاحتماء بالجدار الأبعد عن الطريق.



لم يتيسر لها أن تغفو قليلا كما كانت تأمل، شاغلها احتدام مشاعرها، هذا الأسى المترتب عن غياب معالم تمتُّ لعمرها هنا حيث ولدت وترعرعت قبل أن ينتزعها بو قاسم، ينتقل بها إلى داخل السبيليات، صرائف الفلاحين، حظائر ماشيتهم، صياح أطفالهم، بيتها مبعدة دقائق لا غير، لكن خشيتها من وجود خيم جنودهم في الجوار منه، لعلهم حولوا قريتها لموقع عسكري، تواترها أفكارها قبل أن توجه لومها لها، أنا لم أبلغ المكان بعد كي أقلق، هدأت نفسها للصمت المطنب من حولها، تبادر لها أن تغتنم الفرصة تكرّم عظام زوجها بزيارة قبر الولي، دارت حول الحجرة المتبقية من مبنى المقام، واجهت مدخلها، الظلام يتكاثف في الداخل، بسم الله الرحمن الرحيم، عبرت إليه، تشمم أنفها ما يشبه رائحة بخور قديم، بدأت عيناها تعتادان الظلام، رأت مستطيل الضريح في الوسط ملحّفاً ببقايا قماشة لم تميز لونها في التو، لكنها تعرفه أخضر، اعتاد البعض من أهالي السبيليات يقدّم نذوره لعز الدين، ولا تخلو هذه النذور من كسوة يجري استبدالها بين سنة وأخرى، خطت نحو مستطيل الضريح، مدت يدها بلفة العظام، وضعتها فوقه. الذي أعرفه عنك يا بو قاسم أنت تكنّ محبّة لعز الدين، تذكرت قرأت سورة الفاتحة، جلست مسندة ظهرها للضريح، شملها سكون داخلي افتقدته طويلاً.

كيف لواحد أن يعود إلى الوراء لعشرات من السنين ويبقى محتفظا بوعي لحظته الآنية، كانت في سن المراهقة، ها هي أمها تساررها. بو قاسم تقدّم يطلب زواجه بك. لم تندهش من تسمية

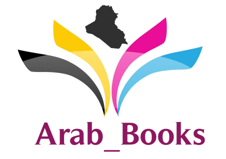


أمها للرجل الذي لم يتزوجها في حينه فيرزقان بقاسم، تجرأت قالت لأمها أنا أحبه. حدجتها أمها بنظرة مندهشة لم تمنعها عن أن تتابع. هو يحبني أيضا. أرادت أمها تأنيبها في حين استطردت من جانبها مقررة. أريده زوجا لي. أضافت مؤكدة. يكفيه إنه استأمنني على عظامه. مع نطقها لكلمة عظامه أحست بأضلاع صدرها تطبق عليها، حضرها وعيها المراوغ، بو قاسم ما عاد حيّا، أمها ما عادت، انكتم نفسها، لو إنها بكت لتخففت من انسحاقها في اللحظة، في اللحظة ذاتها شملها صحوها، نفاد قدرة الاحتمال، للأحلام قوّة تفوق مثيلها في الواقع، فاجأها جسدها اختض بقوة، وجدت نفسها تعوّل بأنين موجوع استغرقها دقائق، أعقبها سماعها حمحمات قدم خير، تخاله ينبهها لوجوده أمام المدخل، تحاملت واقفة، حضنت لفة العظام، أنت طيب. قالت لقدم خير، ما زال السكون يخيّم على الجوار، كان ليلهم هنا مليئا بأصوات الضفادع، جفاف الأنهار على ما يبدو تسبب بهجرة الضفادع أو موتها الجماعي، رفعت رأسها أعلى، بدت السماء مزدحمة بالنجوم، تطلعت صوب الشرق، لديها زهاء ساعتين عن انبلاج الفجر، يحسن بها أن تستغل الظلام. نذهب لبيتنا. قالت لقدم خير وهي ترتقي ظهره، فاجأها ركض بها، ناشدته. لا تسرع كثيرا. سايرت الدرب الترابية لعشر دقائق قبل أن تبلغ طريق أبي الخصيب غير بعيد عن جسر مود الذي يعترض نهر سيد رجب، اشش. أرهفت أذنيها، الجوار خال من أصوات دالة على وجود بشري. ترجّلت، توجهت للجسر، أطلت منه صوب قاع النهر يحدوها أملها أن ترى انعكاس النجوم على سطح مائه،



انقبض صدرها، رأت خندقا موحلا شأن أنهار أخرى صادفتها، فاجأها صوتها رافضا. إلّا هنا. في بالها إن السبيليات مستثناة من الموت جفافا، لكن واقع الحال مدعاة قنوط، ترسّب طعم المرارة تحت لسانها، لو كان الأمر مرهونا بها أجرت مياه شط العرب في أنهاره المتفرعة عنه. أرسلت عينيها بامتداد طريق أبي الخصيب، دقائق معدودة ثم تبلغ بيوت السبيليات. نذهب. امتثل سبقها ماشياً، تذكرت حذرته. إلّا النهيق.




Arab_Books

4

الاقتراب شأن الحضور، اقتران اللهفة نحو توق التماهي بالمكان، تهفو روحها، تحثّ خطوها، تمنع نفسها عن أن تركض، قدم خير يسارع بدوره خطواته، تلك هي شجرة الأثل المعمرة عند أوّل الطريق المؤدية لداخل قريتها، البعض يستهجن وجود أثلة صحراوية وسط غابات النخيل، لكنها العلامة المميزة للسبيليات دون غيرها، حدّثها بو قاسم عنها ذات يوم. مُذ فتحت عيني وهذه الأثلة في مكانها، عمرها لا يقل عن مائة وخمسين سنة، على زمن الدولة العثمانية بادر أحد رجال آل النقيب، ربط ثلاثة أزيار كبيرة لجذع هذه الأثلة، لكي تكون سبيل ماء لمرتادي الطريق. تداعى ذهنها، تذكرت أمرا غفلت عنه، لم تسنح الفرصة لقدم خير أن يشرب الماء منذ ساعات، مع الجهد الذي بذله لا بُد إنه يعاني من عطش شديد، الظرف الماثل، جفاف الأنهار الفرعية، يلزمها أن تقصد المصدر الأساس، شط العرب مسافة ربع ساعة من مكان تواجدها، يبقى خيارها في أن تصحب قدم خير وتذهب لهناك رأسا أو تتوجه لبيتها أولا تتفقده، تنبهت لقدم خير،



بدأ يسارع خطواته صارت هرولة، قالت له. لا تسرع. لكنه واصل هرولته مُصدرا حمحمة غامضة، ليس بوسعها أن تغضب، لعل اندفاعه المفاجئ ناتج عن حنينه الطاغي لبيته الأول، تحدق أمامها، الطريق الأسفلتي يمتد مستقيما من جسر مود الاسمنتي حتى جسر الچومة الخشبي، قبل أن يستدير يمينا باتجاه قرية باب الهوى، الأسماء والدلالات، الناس هنا يألفون الأشياء بأسماء يتعارفون عليها، بقايا الجدار الطيني الممتد إلى يمينها يداري بستان نخيل يدعى الدليشية نسبة لمالكه الحاج جواد الدليشي.

ترهف أذنيها عساها تسمع نأمة دالة على وجود حياة ما، للصمت المطبق طنينه الخاص به، ليل الأراضي الزراعية، كما هو مفترض، يزخر بشتى الأصوات، بدءا بالضفادع انتهاء بالصراصير، هيمنة السكون تعني الموات، انبعث استنتاجها من داخلها، إلا إذا كانت الحرب هي السبب، يتريّث ذهنها عند لا معقولية اجتهادها، الحرب، وضع معروف للجميع، تعني الضجيج لما يبلغ حدوده القصوى، إطلاق نار، دانات مدافع، قصف طائرات، يتريث ذهنها أكثر، تتذكر إنها طوال طريقها لهنا لم تسمع انفجارات دانات ولا هدير طائرات عابرة، لعلهم تعبوا من حربهم، أو أنهم بصدد ما لا يمكن الحدس به. ها هي الأثلة المعمرة، لم تستطع منع يدها من ملامسة جذعها المتحجر تقادما. تصل مدخل شارع السبيليات، ما زالت عتمة الليل تضبب معالم الطريق، قبل إصدارهم أوامرهم بإخلاء السكان كانت هناك إنارة صفراء باهتة صادرة عن مصابيح



مثبتة أعلى الأعمدة الحاملة لأسلاك التيار الكهربائي، شروط الحرب تستلزم إظلاما تاما، خنست مكانها برهة، لا شيء حتى اللحظة يدعو للقلق، تتقدم بخطوات حذرة، تلك هي ظلال بيتها، الكبر المترامي الذي يمثل الحظيرة وصف الغرف التي تضاعفت مع زواج أولادها وبناتها، غافلتها قدماها تسارعتا، توقعت رؤية قدم خير أمام باب البيت، رأت الباب مفتوحاً، حبست صيحة أوشكت تنفلت عنها. أنا هنا. عبّ أنفها رائحة غبار قديم، بركت أرضا. ليس بمقدورها مواجهة جيشان مشاعرها، أطلقت العنان لنحيبها دقائق قبل أن تستعيد توازنها، تستغرب قدرة أبنائها وبناتها على التأقلم مع أمكنة مستجدة، فيما يخصها لا تجزم إن السبب يعود لكبر السن وحده، رفعت صوتها قليلاً. يا قدم خير. بلغتها حمحمته قادمة من ناحية باب الحظيرة. أظنك تعاني عطشاً. غادر الحظيرة مقترباً، تحاملت على نفسها واقفة، فكّت رحله عن ظهره، نفض الأخير جسده بدلالة الارتياح، مدت كفها لامست جبهته. أنت طيب. نشط ذهنها، ضرورة توفير ماء لقدم خير، لو تركته على هواه عرف طريقه صوب الماء، لكنه الليل وخشيتها من العسكر واكتشافهم وجودها قبل استعدادها للمواجهة، انفرج فمها بابتسامة مفارقة. كما لو إني مستعدة لمواجهة محتملة. قالت لقدم خير. نذهب للشط. استجاب شاخراً.

يتبعان امتداد الطريق شرقاً، لم تكن تسمع غير وقع حوافره فوق إسفلت الطريق، سور مدرسة البنين الابتدائية على يمينها،



في الماضي.. ساعات الصباح وصياح الصبية، النور الأصفر الذي كان ينبعث عن غرفة سلمان الحارس، تتجاوز سور المدرسة، أبواب البيوت مغلقة على الصمت، ما جدوى البيوت إذا أقفرت من أهلها، تابعا مشيهما، بلغا مبنى مدرسة البنات، أحست ما يشبه الفراغ في صدرها، قبل ثلاثين سنة من الآن تم افتتاح فصول دراسية مسائية لمحو أميّة النساء، توفرت لها وقتها فرصة التحاقها بالدراسة ستة أشهر تعلمت شيئا عن أحرف الهجاء إلى جانب كتابة اسمها. هبّت على وجهها نسمات طرية، هو شطها المألوف آخذ بالاقتراب، شاغلتها رغبتها بأن تسرع حين تناهى لسمعها سعال رجالي، أصابها ما يشبه الشلل، كان السعال قادما من صوب الشط، همست لقدم خير. اشش. استجاب الأخير توقّف عنده، أرهفت أذنيها، ها هو السعال يتردد ثانية، أعقبه صوت أحدهم مخاطبا آخر. يلزمك طلب الأذن بالذهاب للطبيب. أجاب الآخر مبيّنا سخرية. السعال وحده لا يكفي للحصول على تقرير طبي يفيد بالإعفاء من الخدمة العسكرية. ضحك الأول. إلا إذا سبب سعالك عدوى خطيرة. تساءلت أم قاسم مع نفسها مستنكرة. من أين لهم حق استباحة الشط. استطردت هامسة لقدم خير. نبتعد. قفلت راجعة، أطلق قدم خير شخيرا خافتا، لحق بها.

لا تدري ما الذي سيكون عليه رد فعل العسكر لدى اكتشافهم حضورها بينهم، مع استبعادها احتمال اطلاق نار، مع ارجاء فكرة اعتقال فوري، يبقى عذرها.. أنا في بيتي. على افتراض أنهم أصغوا



لها ثم حاجّوها. وجودك داخل منطقة عمليات عسكرية يمثّل مخاطرة على حياتك، ستردّهم قائلة. الله الحافظ. فإن وجدت لديهم استعدادا لسماع المزيد، أضافت. حياة امرأة متقدمة في السن ليست أثمن من حياة شباب أمثالكم. ستسوق حججا أخرى إذا اقتضت الضرورة، يناورها خيالها، ماذا لو أجبروها على المغادرة دون سماع دفاعها كأن يزجرها مسؤول منهم. عليك الابتعاد فوراً وإلا.. تسارع تصرف هاجسها، حَسْبها انشغالها بمهمة توفير الماء لقدم خير، تتذكّر شريعة نهر الجومة القريبة من بيتها، العمق الذي تمتاز به تلك الشريعة يمنحها إمكانية الاحتفاظ بكمية من الماء في أشد حالات جزر فصل الشتاء، همست لقدم خير. نقصد شريعتنا. انصاع لها، تبعها من غير صوت، بلوغهما المكان، تنبهت أم قاسم إلى بدء انبلاج أنوار الفجر، تسارع خفقان قلبها، ضوء النهار يعني احتمال انكشافها للعسكر، كان في بالها أن تكون السبيليات خالية منهم، أما وقد سمعت أصواتهم.. الأمر الوارد أنهم يتواجدون مع خيمهم غير بعيد عن ساحل الشط، شأن حالهم ما وراء جسر السراجي، تطلعت لعمق الشريعة، صدق حدسها، هناك بقية ماء، لقدم خير حقه أن يروي عطشه، تثبّت الأخير من مواقع حوافره لدى هبوطه نحو عمق الشريعة، مدّ رقبته، تشمم الماء، نفض رأسه بحركة رافضة. لم يعجبك الماء. تساءلت، اقتربت من الماء، مدت كفّها غرفت حفنة، رفعتها لأنفها، الماء الراكد وسط الوحل منذ زمن يخلّف رائحة حامضة، التفتت لقدم خير. معك حق. أطلقت زفرة حيرة. ما العمل.



لم يطل قدم خير بقاءه هناك، سبقها متسلقا الجرف. إلى أين.
لم يعرها أذنا صاغية، تابع مشيه مبتعدا. أنت لن تستطيع تدبّر أمر الماء وحدك. احتجاجها من عدمه، حثت خطوها صوب بيتها. تملكها ارتياحها، رأته يقف حالة انتظار أمام حوض حنفية الماء الذي يتوسط الحوش، قالت له وهي تفلت زفرة أسى. كان زمان. تظنه لم يفهم ما قالته، رأته يمد بوزه للصنبور يتشممه، عاتبته. أنت لا تُصدّق. نفض رأسه. وضّحت له. لا وجود لماء الحنفية. حرن في وقفته. ما دمت تصر. قالتها مسلمة، أرادت أن تثبت له صحة كلامها، مدّت يدها لصنبور الحنفية، عالجته، سمعت ما يشبه أزيزيا خافتا جراء احتباس الهواء لزمن طويل قبل أن تتفاجأ باندفاع الماء قوياً، غلبتها ضحكتها. أنت تعرف بوجود الماء. مع بدء انتشار أنوار الفجر اكثر توفرت لها فرصة تفقّد موجودات بيتها، أشياؤها باقية مثلما تركتها تغلّفها طبقة غبار كثيفة، لا قيمة للأشياء بغياب أصحابها، كادت تسمع أصوات أبنائها وبناتها. أين أنتِ يا أمي. تندغم أصواتهم ببعضها، تؤلف عتباً جماعياً، تلفتت حولَها، لعلها أخطأت باتخاذ قرار الابتعاد عنهم، قدم خير لم يعد واقفا عند حوض الماء، تظنه يعاني من وحدته على شاكلته، حمل لها الهواء صدى همهمات رجالية، استبد بها إحساسها بالتوجس، مسألة وقت لا غير، احتمال اقتحامهم عليها البيت. من سمح لكِ. كيف وصلتِ. ما الذي سترد به، عجز ذهنها عن ملاحقة تصوّرات محددة، هي لا تستطيع مدافعة قدرها لكنها تسأل الله أن يلطّف منه، خنست لداخلها برهة قبل أن تلتفت للفّة عظام زوجها. لا بأس من الشروع بإعداد قبرك، تفحصت مساحة



الحوش، مرتفع الأرض الكائن عند النخلة الحلاوية يمثّل المكان الأنسب، بيتهم لا يخلو من أدوات فلاحة، استعانت بالشبل، لم يسبق لها أن تولّت مهمة حفر قبر، شجّعت نفسها. لأجلك يا بو قاسم. انفقت ساعتين تحفر، التل الترابي المحيط بالحفرة يحجب رؤيتها، لم تلحظ انتشار شمس الصباح في الحوش، دققت في الإنجاز الذي حققته، تخاله ليس كافيا، تبادر لذهنها. يجب أن لا يقل عمق القبر عن مترين. وسط انشغالها بعملها لم تتنبّه لاقتحام باب منزلها من جانب ثلاثة جنود. ما الذي جاء بك لهنا. فاجأها جسدها اختض بقوة لدى سماعها للصوت الرجالي الغاضب والمستنكر في الوقت ذاته، رفعت رأسها، رأت فوهات ثلاث بنادق رشاشة موجهة لصدرها، عاد صوت أحدهم صرخ بها. من أنت. ليس أمامها إلا أن تخونها إرادتها، استجاب لها جسدها، تهاوت فاقدة لوعيها.

لماذا لم يبادر بو قاسم لتحذيرها في حينه، قدم خير بسمعه المرهف ما الذي منعه عن.. تداعياتها فيما يشبه حالة سيولة ذهنية، حالها إذا كانت مغلوبة على أمرها، راودها احتمال.. هناك من يناشدها. يا خالة. يصلها الصوت قادماً من ضفة أخرى للوعي. تراني أين. تساءلت مع نفسها باذلة محاولتها لأن تستجمع قواها، سمعت صوتا آخر. هي تتنفس. رد ثالث. لا يوجد لديها ما يدعوها لئلا تفعل. تساءل رابع من على مسافة. هل استعادت وعيها. أجابه صوت من موقع قريب. يبدو إنها بحاجة لبعض الوقت يا سيدي. لعل تكاثر المتحدثين من حولها استفز حواسها،



بذلت يدها جهدها نشّت أصواتهم عنها. هتف أحدهم مستبشرا. حرّكت يدها. سمعت صوتا آمرا آخذا بالاقتراب. ابتعدوا قليلا. اعتمل قرارها في داخلها، يجدر بها أن تعرف ما يدور، لم تتردد طويلا، فتحت جفنيها. رأت شابا بزي عسكري أنيق يقف مبعدة خطوتين، لا بد أن يكون ضابطهم، رأت عددا من جنود شباب يتحلّقون حولها، رفعت بصرها إلى أعلى، رأت جانبا من سماء النهار وراء أغصان شجرة برهام عالية، تناهى استنتاجها لوعيها، لست في بيتي، غمغمت متسائلة. أين أنا. صوت الضابط الشاب لا يخلو من هامش استغراب. أنت في موقع عسكري. تحصر ذهنها، كانت تواصل عملها في حفر قبر لزوجها عندما.. نشط ذهنها، سألت جزعة. أين قدم خير. تبادلوا دهشتهم بينهم. ما هو القدم خير. في حين سمعت شخيره من مكان يقع وراء زحمتهم، التفتت نحو مصدر الشخير، غيّر أحد الجنود المحيطين بها مكان وقفته كي يمنحها فسحة الرؤية، عزّ عليها أن ترى حمارها مقيدا من إحدى حوافره. تساءلت مستنكرة. لماذا الحبل. أراحتها بادرة الضابط الشاب. فكوا وثاق الحمار. التفت إليها، قال دون أن يداري استغرابه. حمارك يفهم عليك. كادت إجابتها تسبق انتظامها تفكيرها. لأنه حمار. تناهى لسمعها وشيش الموج قادماً من ناحية الشط، هم يقيمون في الجوار منه، لفت ضابطهم اهتمامها إليه. كيف وصلت لهنا. نبرة صوته باقية تنم عن استغرابه الشديد، من أين لها أن تجيب على سؤال يزمع إبعادها.



كمن يهدف لدفع قدره الحتمي ولو لوقت قصير قالت بصوت أرادت له أن يصدر واهنا. ليتكم تأتوني بكوب شاي. ارتفع صوته مضمناً امتعاضه. طلب غريب. رددت بصوتها الواهن إياه. أنا منذ أسبوعٍ لم.. لم تكمل جملتها، أسبلت جفنيها، سحبت لصدرها شهيقاً عميقاً، سمعت صوت أحدهم مبيتاً قلقاً. عساها لا تفقد وعيها ثانية. سارعت فتحت عينيها، نفت من فورها. لن أفقد وعيي. نقّلت نظراتها على وجوههم. ماذا حدث. أردفت. كنت أواصل حفر قبر بو قاسم. قاطعها الضابط. من هو بو قاسم. تجاوزت إجابة سؤاله. ما الذي جاء بي لهذا المكان. قال أحد جنودهم. كنتِ شبه ميتة، حملناك لهنا من أجل العناية بك. قال الضابط كمن يسلّم لأمر واقع. آتوها بكوب شاي. تخاله راقب رجفة يدها وهي تقرّب كوب الشاي لشفتيها. لم يدار اهتمامه من صوته. متى تناولت آخر وجبة طعام. عليها أن لا تضيع الفرصة. لا أتذكر. خبزهم الأسمر الذي يميل للون بنّي غامق والقاسي كما الحجر سرعان ما يلين يصير لذيذا يذوب في الفم عندما تنقعه لثوان في حساء العدس الساخن، التهمت خبزتين كاملتين، راقبت عيني ضابطهم من طرف خفي، كان راضياً عن نهمها لطعامهم، يشغلها أمر وحيد، أن لا يجبروها على المغادرة، لو فعلوا ذلك، ستجد نفسها أين. كان الجنود قد انفضّوا من حولها ولم يبق سوى الضابط. ما اسمك يا خالة. أم قاسم. أعمل الآخر ذهنه قليلا. كم عمر ابنك قاسم. أكبر منك بكثير. ابتسم. أظنه من بين المهجرين. نعم. استطردت. يعيش مع باقي أفراد أسرتي في النجف. دهشته تغالب صوته. لا



أظنك وصلت لهنا على ظهر حمارك. أومأت برأسها موافقة. ماذا بخصوص عائلتك، هل يعرفون عن خبر سفرك. عرفوه في وقت لاحق. وشى صوته بفضوله. ماذا تعنين.

اشتراط أم قاسم سبق نيتها بالإفضاء. إذا كان لديك استعداد لأن تسمع. لدي. شجعها ذلك على أن تروي حقيقة حالها بما يناسب الظرف. غادرنا شأن كل الذين غادروا، فجعني بو قاسم توفّي وهو مستغرق في نومه. سكتت وهلة. ليس عدلا أن يغيب من غير استئذان. رأته يرفع حاجبيه دهشة. كنا تجاوزنا مدينة الناصرية، من أجل أن يسهل الاستدلال على قبره تولى أولاده دفنه بين نخلتين إلى جانب الطريق الدولية. رأته يهتم بالإصغاء. لا وقت لإقامة مجلس عزاء، لا وقت للحزن، يتوجّب تأجيل ذلك كله لحين استقرارنا في سكن ما. سحبت لصدرها شهيقا أطلقته زفرة. بناتي وأولادي خمسة، أحفادي وحفيداتي حوالي عشرين.. بو قاسم واحد. خطفت نظرة لوجهه، لم يزايله فضوله. أكملنا مشينا حتى وصلنا النجف بعد أيام، أقمنا عشيشنا غير بعيد عن سور المقبرة العظيمة، بو قاسم لم ينسني، كان يزورني في الحلم ليليا، خلال زياراته أوجه له السؤال ذاته لماذا أنت حزين، يجيبني لأني مدفون في أرض غريبة، ما المطلوب مني، ليتك تبادرين لاستعادة رفاتي تأخذيني لبيتنا، شدد علي، وصيتي لك أن أدفن تحت النخلة الحلاوية في حوشنا. شردت عيناها في البعيد. زارني في حلم البارحة، بعدما تنتهين من دفني مطلوب منك أن تقومي بتلاوة



القرآن الكريم على قبري ساعتين في اليوم لمدّة أربعين يوما. كلماتها الأخيرة بالرسالة المضمنة، رفع الضابط يده بإشارة دالة على طلب الصمت، سألها. أين هي رفات زوجك الآن. ملفوفة بكفنها في البيت. اتخذ قراره. نساعدك بإتمام مراسم دفنه اليوم، على أن نتدبر أمر نقلك بعدها مباشرة إلى ما وراء حدود الأراضي المحرّمة.

مع شعورها بفجيعتها تعثرت كلمته الأخيرة في ذهنها. لماذا محرمة. يُحرم دخولها على المدنيين حرصاً على سلامتهم. قالت له. حياتها، وهي المرأة التي عاشت ريثما صارت جدّة ليست أغلى من حياة شباب في مقتبل.. قاطعها. الحرب هي الحرب، ولا أحد يفكر بمثل هذا المنطق. استطرد موضحاً. الأوامر واضحة لا تقبل التأويل. لو صارحته، لم أفهم ما الذي تعنيه بالتأويل، سألته. ماذا عن وصية المرحوم بخصوص تلاوة القرآن الكريم. لم يشأ أن يكون قاسياً في رده. أنت وزوجك ووصاياكما أمور تخصكما. غصّت بتساؤلها. لم أفهم. نفض رأسه. ما باليد حيلة. بذلت جهدها لمداراة لوعتها. هل تسمحون لي أن أعود حاملة جثمان زوجي معي. سيطر على تذمره من إطالتها جدلها معه. أمرك عائد لك. لم تتمالك مشاعرها أكثر، أجهشت باكية بحرقة، انتظر وهلة آملا أن تكف لكنها واصلت نحيبها. يا خالة. تواصل عويلها. انتابته حيرته، لا يريد إثارة أحزان هذه المرأة الغريبة. لدينا لائحة تعليمات صارمة لا نستطيع مخالفتها، وإن فعلنا تعرّضنا جميعنا للعقاب. سكت ثانيتين. أنتِ من ضمننا. هدأت قليلاً، تمالكت أنفاسها. ما هو اليوم



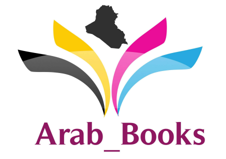
في الشهر. اضطر للرد.11 منه. رق صوتها لدرجة التوسل. أدري إن طلبي سيكون صعباً.. بترت جملتها، مما دعاه لأن يقول. نعرف الطلب أولا. إن سمحتم لي بالبقاء في بيتي حتى يوم 21. قال. أنت توقّتين ليوم نوروز. لم تقل له لأني وُلدت يوم نوروز، قالت وهي ترفع كفها لعينها تداري دمعتها. أنا وبو قاسم تزوجنا يوم نوروز. بذل جهده يداري شعوره بالتعاطف. تهدفين للبقاء عشرة أيام. لهجت. عسى أن يحسبها لك الباري حسنة. صمت مفكراً وهلة، قال إثرها مبيتاً حيرة. نحن معرضون، بين وقت وآخر، لتفتيش انضباطي. آثرت أن لا تنبس بكلمة ريثما يفصح. ما الذي نقوله للجهات الانضباطية إذا عرفوا بوجودك. حضرها ردها. قولوا لهم امرأة عجوز مخبولة. دارى محدثها ضحكته. سنفكر بذريعة مقبولة. أصغت له، أضاف مترسماً جديته. مع اشتراط مغادرتك هذا المكان صباح يوم 21. ردت متمنية. صباح يوم 22. أمّن بإيماءة من رأسه. ليكن. أردف. في هذه الحالة لديك وقت كاف لتلاوة القرآن الكريم على قبر زوجك. غافلتها زفرة ارتياح، نهضت. أنت طيب. حثّت خطوها مبتعدة، لحق بها قدم خير.

يحق لها أن تطمئن قليلا، الأمر أشبه باجتيازها الامتحان الأكبر، الفضل الأول يعود لجسدها الذي مدّ يد العون في اللحظة الحاسمة، ففقدان الوعي ليس أمراً يستطيع الواحد توقيته متى أراد، تعترف بفزعها الشديد عندما رأت فوهات بنادقهم الرشاشة موجّهة لصدرها، لم تجد بدّا من التسليم للإغماء، ليس غياباً تاماً لإحساسها



بما حولها، لكنه حضور شفيف أشبه بالمعلّق، كانت تسمع تواتر أصواتهم بما تنطوي عليه من قلق وحيرة، لم يسبق لهم أن واجهوا ظرفا شبيها، كلهم صغار السن، بعضهم بلغ العشرين بالكاد، عزّ عليها أن تتسبب بإثارة جزعهم، ولا مفر من متابعة الغياب من أجل بلوغ هدف البقاء، تعترف بأنه هدف مجزوء مرهون بعشرة أيام، تبقى مراهنتها، عساها تجد سببا أو مبررا يقنعهم بفكرة الإبقاء عليها قبل انصرام فترتها المحددة، كوب الشاي والخبز اللذيذ وحساء العدس، تتذكر حمارها، هو يحتاج طعاما أيضا. مواصلتهما مشيهما، السور الطيني لبستان الدليشية إلى اليسار منهما، لفتت اهتمام قدم خير إلى فسحة في جدار البستان. بإمكانك العثور على ما تأكله. احتفى الأخير باقتراحها، أصدر شخيراً خافتاً، سارع اختفى داخل البستان.




Arab_Books

5

أنهت إعداد أرضية القبر، سمعت حمحمة قدم خير، رفعت رأسها، رأته يطل عليها يخبرها بعودته. إذا احتجتك دعوتك. انسحب من مجال رؤيتها، رفعت رأسها أعلى، غيوم قطنية تكاد تداري قرص الشمس، هو وقت الظهيرة، ليس ما يدعوها لتتعجل دفن رفات بو قاسم، في بالها أن تجعل قبره مكانا حافظا لعظامه رؤوفا بها، تتذكر وجود كمية من طابوق البناء عند بيت جارهم مُلّا حسين، تعرف ببقاء هذا الطابوق في مكانه، لكنها لا تعرف المكان الذي استقر فيه الملّا حسين بعد التهجير، ولو رأته مستقبلا قالت له. احتجت لعدد قليل من طابوقاتك لغرض تدعيم قبر بو قاسم. تحدس إجابته. حلالكم يا أم قاسم. غادرت الحفرة، تنبه قدم خير لها، ثبتت رحله فوق ظهره. تعال.. تولّت رصف أرضية القبر بالطابوق قبل أن تدعمه من الجانبين، صار أشبه بتابوت حجري ضيق مفتوح من أعلاه، حملت لفّة القماش الحاوية للعظام. بسم الله الرحمن الرحيم. وسّدت لفّتها في العمق. لا بأس عليك، لن



أترك بقاياك مكشوفة يأكلها التراب كما كانت حال بر الناصرية. جاءت بكمية طابوق أخرى، رصفته أشبه بغطاء للتابوت، ألقت نظرة أخيرة على إنجازها. أنت في الأمان الآن. لم تهل التراب من فورها، توجهت نحو غرفتها، سرير الزوجية باق كما تركته منذ فجر يوم الإخلاء، الصندوق المبيّت في الزاوية، بركت عنده، الأجزاء الثلاثون للقرآن الكريم موجودة في كيس قماشي أبيض داخل الصندوق، حضنت الكيس لصدرها. اختارت الجزء الأول الحاوي لقصار السور، تدري عن نفسها إنها تحفظ المعوذات، لكنها شاءت الالتزام بالتلاوة العملية المتبعة في مجالس العزاء المعتادة.

وسط انشغالها بالقراءة استرعى انتباهها شخير قدم خير، لدى التفاتها تناهت لسمعها طرقات على باب البيت، خلصت لاستنتاجها. ليس سوى الجنود، رفعت صوتها. الباب مفتوح. دخل أحدهم. بدأها بتحيته مسبقا لإفضائه. بعث بي سيدي ملازم عبدالكريم. رأته يحمل كيسا ورقيا، شاي مع سكر، أخذت منه كيسه. أنتم أولاد حلال. نمّت عيناه عن نظرة فضول. كيف وصلت لهنا يا خالة. أكمل دون أن ينتظر إجابتها. أنت كما سمعت قادمة من النجف. أُحب أن تناديني باسمي.. أم قاسم. أنا نائب ضابط صادق. الشكر لمسؤولكم.. أنا شرّيبة شاي. تابعت. إن كان لديك وقت أعددته لنشربه معا، أحتاج معرفة كيف يتوجب أن أتصرّف. استجاب مبتسماً. لدي كل الوقت. تطلّعت فيه تستوضحه قصده، استطرد. نعيش حالة هدوء هذه الأيام، من



عادة الإيرانيين أن يقيموا وزنا لعيد نوروز، يتوقفون عن القتال قبل اسبوعين من موعده. فكّرت أم قاسم. لهذا السبب لم يصادفني ما يؤكد استمرار الحرب. جاءت بحصيرة، فرشتها غير بعيد عن موقع القبر. عرض عليها. إن شئت ساعدتك في مهمة دفن المرحوم زوجك. ضمّنت رجاءها صوتها. لعلك تساعدني في أمر استقراري هنا. لم يدار حيرته. كيف. لم تخف بدورها حيرتها. لا أدري. شربهما الشاي حدثته عن زمن وجودها في النجف، حزنها وحنينها ريثما قرار العودة، قدم خير لم يدخر وسعه، بلوغها المكان، والمفاجأة إزاء حال قائمة، السبيليات ما قبل التهجير نابضة بالحياة، مكتفية على نفسها، وجود مقام سيد رجب الرفاعي المعروف بكراماته حيث اعتدنا رؤية العديد من سيارات نقل الركاب تصل محملة بأصحاب نذور قادمين من مناطق نائية، أيامها تلك كانت السبيليات نابضة بالحياة. غلبها أساها. الآن ليست خالية من ناسها فقط لكنه موات البساتين كذلك.

قال نائب ضابط صادق إنه كان من بين عسكريين أوائل قدموا لهنا، تولى مع ضابط الفصيل السابق، توزيع المواقع الدفاعية بناء على توجيهات قيادة الفرقة، يوافقها على إن المكان كان نابضا بالخضرة، صدرت أوامر عسكرية تقضي بردم مداخل الأنهار المتفرعة عن الشط، بدأ الذبول ومن ثم الموات. لم تدار شعورها بالاستنكار. لماذا حرمان البساتين من الماء. إجراءات دفاعية. رفعت حاجبيها دهشة. دفاعية ضد ماذا. حار بإجابته، لو قال لها، فعل الردم يهدف لمنع



تسلل ضفادع بشرية إيرانية إلى ما وراء خطوطنا الخلفية، لو أفاض حدّثها عن الخطط العسكرية والإجراءات المترتبة، الحرب الحقيقية كما هو معلن تدور في مكان آَخر، عند خطوط التماس مع العدو، لعله يعرف قليلا عن عمليات الكر والفر في المنطقة الحدودية المسماة بالشلامچة شمال شرق البصرة أو حول الملاحات جنوب الفاو، معلومات غير مصرّح له أن يخوض فيها تخص فصيله التابع لكتيبة المشاة المدرعة الموكلة إليها مهام المرابطة إزاء الساحل الغربي لشط العرب بصفته جزءاً حيويا من خط الدفاع الثاني الممتد من منطقة الخورة حت باب سليمان جنوب قضاء أبي الخصيب. تردد أن يقول ما يعرف، لكن هذه المرأة التي انبثقت وسطهم فجأة قادمة من نواحي النجف الأشرف.. أن تجتاز بحمارها مئات كيلومترات مبثوثة بالعسكر دون اعتراض من أي.. أمر يشبه اجتراح المعجزة، وحدهما أمام غوري الشاي، اتخذ قراره أن يبادلها الحديث عفو الخاطر.

الحرب حسابات قيادات وما على أمثالنا العسكر سوى الطاعة العمياء. لم تخف استغرابها. لماذا عمياء. تعبير مجازي معناه نفّذ أوامر صادرة إليك من غير أن تسأل. أومأت له بدلالة التسليم لا القناعة. لمّا بدأنا انتشارنا هنا قبل اشتداد الحرب بالصورة التي بلغتها كان عددنا أربعين، توزّعنا خيمنا غير بعيد عن قصور آَل النقيب، على الرغم من اتخاذنا لاحتياطات الحماية اللازمة ما زلنا نتعرض بين وقت وآَخر لإصابات مباشرة من دانات مدافع إيرانية عابرة للحدود. أطلق زفرة بدت مُغفلة. كلما نقص عددنا عوضونا



بمكلفين التحقوا حديثا.. كان لنا ضابط آخر استشهد داخل سيارته الجيب. سألته بمشاركة أليمة. كيف يستهدفونكم من على كل هذه المسافة البعيدة. وجد فرصته ينوّه. لهذا السبب لدينا أوامر مشددة تمنع تواجد المدنيين في مناطق العمليات. عقّبت عن قناعة. الله الحافظ. بخصوص بقائها في المكان لمدة مفتوحة قال لها. تحقيق مثل هذا الطلب بيد ملازم عبدالكريم. قالت له. هو شاب طيّب سمح لي بالبقاء لعشرة أيام. وشّت صوتها بتمنيها. لو استطعنا إقناعه بزيادة المدة.. تركت جملتها مفتوحة، أراد أن يكون منصفا. لا أظنه يملك صلاحية منحك الأذن ببقاء دائم. قالت. لا أريد بقاءً دائما، يكفي بضعة أسابيع. لو تصادف مرور إحدى اللجان الانضباطية، أو حضور ضابط رتبة عليا تعرّض ملازم عبدالكريم للمساءلة. أبدت دهشتها. هل يحاسبونه على وجودي. سؤالهم الأول له كيف وصلت هذه المرأة لهنا. مجاراة له في منحى حديثه افترضت نفسها شخصاً آخر. يقول لهم لا أعرف عنها شيئا.. ظهرتْ بيننا فجأة. أطلق محدثها ضحكة مفارقة خافتة. لا يمكن قبول مثل هذه الإجابات في محاضر تحقيق عسكرية. عاتبته. أنت تصعّب الأمور. أنا صريح معك. لم تجد ما ترد به. سادت لحظات صمت أنهاها. لا أحد يرغب بأن يعيش في منطقة خطرة.. لماذا إصرارِك على البقاء. فاجأته إجابتها. طلب المرحوم بو قاسم. هل أوصى بذلك. ليست وصية. تطلع إليها منتظراً توضيحها. يزورني في منامي بين ليلة وثانية يطلب مني البقاء إلى جانبه. لم يخف استغرابه. حري به أن يراعي بقاءك حيّة بابتعادك عن منطقة العمليات. الأمر لا يخص بو قاسم وحده.. لا



أستطيع مواصلة العيش بعيداً عن هنا. تأمّل ما قالته، جاء تساؤله خارج السياق. عندك ولد. شفّ صوتها محبّة. عندي أولاد وبنات وأحفاد. أين. في النجف. كيف تعيشين بعيدة عنهم. هم مشغولون بأنفسهم. نقّلت عينيها على أبواب غرف بيتها. لا بُد من وجود شخص يشغل هذا المكان.. المنازل المهجورة مُعرّضة للخراب. أزمع التعقيب، لكنها تابعت. من يُخفف وحدة بو قاسم. اعترف لها. لا أفهم كيف تفكرين. استطرد. إنْ كان علي أدفع نصف عمري لقاء يوم واحد أقضيه مع عائلتي. أين هم. في الموصل. استجابت. الموصل بعيدة.. متى آخر زيارة. ولا زيارة. ألا يحق للعسكر طلب أذن. عندما تسمح ظروف الحرب. لم تفهم قصده. لا يمر عليهم شهر دون أن يتعرض واحد منهم للإصابة، الاستشهاد أحيانا. مرة ثانية لم تفهم قصده. من أين لواحدهم جرأة التقدّم بطلب إجازة وقد انتهى توّه من جمع أشلاء رفيق له. نمّت عيناها بحزن مشارك. لا تظنهم يدفنون شهداءهم هنا. تأتي سيارة إسعاف عسكري تتسلّم الجثامين. خطر لها أن تسأله عن عدد قتلاهم لكنها استبدلته. متى تنتهي حربهم هذه. أبدى حيرته. لا أحد يجزم. لو سألته، جدواهم من الحرب، يتوجب على العسكري أن لا يسأل.

خلال انشغالهما بالحديث اقترب قدم خير من حوض الحنفية وسط الحوش حيث بقايا ماء، مدّ بوزه، بدأ يشرب بصوت مسموع، عَنّ لأم قاسم أن تنوّه. على الرغم من استمرار الحرب مازال ماء الحنفية جاريا. في الأشهر الأولى لوجودنا لم يكن هناك ماء إسالة،



كانوا يلبّون احتياجنا لمياه الشرب بسيارات صهريج، لكن سلاح الهندسة التابع للجيش إعاد تشغيل محطة تحلية الماء عند مشارف أبي الخصيب. ابتسم مسبقا لمواصلته. تعرّضت هذه المحطة ذات مرة لقصف مدفعي إيراني مباشر تسبب بانقطاع ماء الإسالة مدة أسبوعين. خلصت لرأيها. ليس أفضل من ماء الشط. بعد انصرافه اقتربت من حفرة قبر زوجها. قالت له. لا أظنك متعجلا ردم التراب. واصلت بحس الاعتذار. مضطرة لأن أغيب عنك بعض الوقت. التفتت لقدمٍ خير. نقوم بجولة في أرجاء السبيليات. أن ترى الموجودات عفواً أو مصادفة شيء، وأن تعني برؤيتها شيء آخر. ساعة الإجلاء لم يراودها خاطر إلقاء نظرة متأنّية على مفردات المكان حتى تُبقي صورتها محفوظة في الذاكرة، كانت خلال ظرفها ذاك مأخوذة من داخلها غصبا عنها بفجيعة المفارقة، طوال زمن البيت العشّة عند مقبرة النجف بذلت جهدها لاستعادة تفاصيل دقيقة متصلة بحياتها هنا لكن محاولاتها لم تتجاوز كونها حصيلة انفعالات لحظات عاشتها عبر زمن ما قبل، جهدها من عدمه، بقيت السبيليات ركام صورغائمةعجزت عن استحضارها حيّة، بإمكانها الآن أن تتثبّت من علاقتها بالمحيط.

لم تعن بإقفال باب بيتها، خلو الجوار كله بما يدل على غياب الحياة، لولا وجود العسكر عند الشط. تتأمل ما حولها، على اليمين منها يقع باب بيت عبود الأطرش، كان الأخير نجارا مختصا بصناعة الدواليب والأسرّة، يقصده الشباب ممن ينوون الإقدام على



الزواج، تستعيد موقفاً لها معه لمّا استعانت به لإصلاح عارضة سرير الزوجية، رفض قبول أجر عمله. استغربت رفضه. لماذا يا عبود. أجابها مضمنا قناعة ورضا. لأني صنعت هذا السرير، أنا مسؤول عن صيانته. تتذكر كيفية إدارتها لحديثها معه، تم من جانبها استعانة بالإشارة، اكتسب لقبه الأطرش لأنه فاقد سمعه، بيته هو منجرته في الوقت ذاته، تقوم أخته حميدة على رعاية شؤون المنزل رغم كونها فاقدة سمعها أيضا. يتألف البيت من حجرة صغيرة بسريرين وأخرى كبيرة تمثّل المنجرة، اقتربت من الباب، تعرف عن عبود وحميدة أنهما لا يقفلان باب بيتهما بالرتاج، الأطرش لا يسمع طرقات الباب وعلى الزائر أن يدخل، ثم يظهر أمام عيني عبود الذي يقضي ساعات نهاره كلها داخل منجرته، حدّثت أم قاسم نفسها. ما الذي يمنع. دفعت الباب، تبدّى لها الدهليز، التفتت لقدم خير. تستطيع الدخول. اسعدته بادرتها، حرك رأسه احتفاء، عبر الدهليز متوجّها صوب حجرة المنجرة مباشرة. دار في ذهنها. لعلها رائحة نشارة الخشب. خنست في وقفتها بضع ثوان، لظاهرة الغياب أصواتها الخاصة بها، تداعى خيالها يستعيد صدى صوت منشار عبود بحركته الرتيبة أو وقع مطرقته، تقدّمت خطوات داخل الحوش، استرعت انتباهها شجرة البمبر، انقبض قلبها، البمبرة تجاهد بقاءها حية، غالبية أغصانها أصابها الموات جراء العطش، أرضية الحوش مفروشة بأوراقها اليابسة، رأت عددا محدودا من الفروع القريبة للأرض باقية شبه خضراء تحمل عناقيد ثمار قليلة صغيرة الحجم.



أيام وجود حميدة كانت هذه البمبرة شجرتها المدللة التي تمنحها كميّة وفيرة من الثمار في الموسم الواحد، تحرص على قطف عناقيدها قبل بدء نضجها، تضيفها لخلطة الطرشي التي تتألف في العادة من الخيار الطماطم، اللفت الجزر الباذنجان الثوم، وسط هذا الخليط تنفرد ثمرة البمبر بنكهتها المتميزة وطعمها الفريد، تتذكر أم قاسم كلمات قالتها ابنتها حسنة ذات مساء بعدما دفعت ثمن وعاء خزفي معبأ بالطرشي. دخل حميدة من بيع الطرشي يكاد يتجاوز دخل أخيها عبود من أعمال النجارة. يحضرها التعقيب الذي أدلى به ولدها صالح متحينا حس الدعابة. لأن حميدة طرشاء يحق لها احتكار بيع الطرشي. تكاد تسمع صوت زوجها يزجر ولده. لا تجعل عاهة غيرك مدعاة لتندرك. أنّى للذكرى كل هذا الحضور الحي لدرجة المباغتة، أحست بما يشبه الفراغ في صدرها، لا تجزم أنها قادرة على البقاء بعيدة عنهم إلى ما لا نهاية، ولا من يجزم متى تنتهي هذه الحرب تعود الحياة لطبيعتها، برز قدم خير من غرفة المنجرة يلوك شيئا، مشى قاصدا العريش في الطرف المقابل للحوش حيث مكان حفظ أوعية الطرشي، تطلّعت بالاتجاه، هناك أوعية خزفية كثيرة موضوعة إلى جانب بعضها، رأت قدم خير يمد بوزه يشم قبل أن ينفض رأسه بدلالة الاستنكار، هل صادفته رائحة خل نفاذة، اقتربت من الأوعية، عددها كبير، رأتها مغلقة بإحكام، رغم ذلك هناك رائحة خل، أقعت عند أحد الأوعية، حرّكته في مكانه، عرفت إنه مملوء. لدى تلقي أمر المغادرة ظنّت حميدة إنها عائدة بعد ثلاثة أشهر، ولا بأس من بقاء الطرشي ريثما.. حميدة لم



تعد وهذا الطرشي صار معتّقا بنكهة ألذ. تفحصت أوعية أخرى، وجدتها متخمة، بغياب صاحبة البيت يحق لأم قاسم أن تضع يدها على بعض هذا الطرشي، يجدر بها أن ترد على كرم ملازم عبدالكريم لمّا بعث لها بالشاي والسكر، وإن رجعت حميدة ذات يوم بادرت أم قاسم دفعت لها مقابل ما استولت عليه. شغلتها معاناة البمبرة المسكينة، حوض حنفية الماء وسط الحوش غير بعيد عن جذع البمبرة، أدارت الصنبور، أصدر الأخير أزيزا سبق تدفق الماء، ركض قدم خير يشرب، ابتسمت أم قاسم برضا، استعانت بفأس نجارة عائد لصاحب البيت، وجّهت جريان الماء لعند البمبرة، أرهفت سمعها، صوت يشبه الهسيس انبعث في اللحظات الأولى لتشرّب الأرض الجافة بالماء، تطلعت لأغصان البمبرة، خيّل لها إنها أبدت سعادتها، للأشجار لغتها الخاصة، قطعت أم قاسم وعدها. لن أغفل أمر سقايتك.



6

سبقها قدم خير نحو فسحة جدار بستان الدليشية، ابتسمت إزاء مبادرته، لحقت به، تتشمم هواء البستان، لماذا طغيان رائحة الهشيم تخالطه رائحة لا تخلو من حموضة التخمير، يبدو أن للنباتات أسلوبها بالإعلان عن تسليمها للموت، سعف النخيل بلونه الأصفر المتلاشي، شجرتا التوت المتماثلتان واجهتا مصيرهما المنتظر بالموت واقفتين، أغصان جرداء وكمية من الأوراق الجافة حول جذعيهما، ثلاثون شهرا مِن غير ماء، مَن القاتل. البحث في الأسباب والنتائج مدعاة حزن، رأت قدم خير يسلك طريقه داخل الجداول الجافة يبحث عن بقايا أعشاب، لو تطلّعت في أرجاء البستان.. أيام ما قبل التهجير كانت زحمة الخضرة تحجب الرؤية، أشجار الرمان والعنب، وكذلك المشمش والبرتقال، واليوسف أفندي، تتذكر امتداد هذا البستان حتى ضفة نهر سيد رجب حيث الموز بأوراقه العملاقة فارهة الخضرة لدى ميلانها باتجاه الماء، تتفاجأ بقلبها يُسارع خفقانه، تغافلها ذاكرتها تستحضر جريان ماء النهر في حالة المد، لونه الخليط



ما بين أخضر النبات وأزرق السماء، تتذكره يتدافع طافحاً حتى ضفّتيه، تنبهت لغياب قدم خير عن مجال رؤيتها، رفعت صوتها. يا قدم خير. سمعت شخيره قبل أن يمدّ رقبته، مشيرا لمكانه في عمق أحد الجداول الجافة عند طرف السور الخلفي لبيت محمود عباس، ما الذي أغراه بالتوجه إلى هناك.

حثّت خطوها، الأوراق الجافة تتقصف تحت قدميها، رأت أغصان السدرة البمباوية الموجودة في بيت محمود عباس تتدلى بأغصانها الصفراء خارج سور المنزل، لدى اقترابها أكثر رأت قدم خير يمضغ بعض ثمار النبق المتساقط داخل الجدول الجاف، تملكتها دهشتها، مرة أولى ترى حمارا يأكل نبقا، هل هو الجوع أم توفّر المعروض، تعرف قدم خيرها، لو كان الثمر عفنا لما طاب له أكله، تقدمت أكثر، مساحة الأرض الكائنة وراء سور منزل محمود عباس مفروشة بالثمار ذاتها، رأت بعضها جافا إثر مرور وقت طويل على تساقطها، بعض آخر كان طريا نسبيا، هفت روحها بعدما تذكرت إن السبيليات خالية من سدر يعطي نبقا بماويا متميزا سوى هذه، الحجم البيضاوي الكبير، اللون البني الفاتح ونكهة تشبه ثمرة تفاح متخمرة قليلاً، تحلّب ريقها، لم تمنع نفسها، انحنت، اختارت واحدة، مسحتها بثوبها قبل أن تلقمها فمها، الطعم بالذكرى المصاحبة، رفعت عينيها للأغصان المتدلية، اللون الأرجواني للأوراق يوحي بمعاناة عطش شديد، تدري أن شجرة السدر شأن النخلة قادرة على مكابدة العطش، لكن توفر الماء أمر حيوي، تداعى ذهنها استعاد



مفردات زمن ما قبل الحرب، كان محمود عباس صاحب الدكان الوحيد المسؤول عن تلبية احتياجات أهالي السبيليات من مواد غذائية أساسية، قبل أن يتنازل عن دكانه لخضير الأعمى، ينتقل بتجارته لسوق المقام في العشار، ينشط ذهنها أكثر يستعيد هيئة الحوش وراء السور، الذوق الرفيع لهذا المحمود عباس، زخرفة أبواب الغرف ونوافذها المطلة على ساحة المنزل، مساحة الأرض المزروعة بالجوري المحوطة لجذع السدرة، ونافورة الماء القائمة عند الزاوية، حال الجوري من حال النافورة..

راحت أذناها تصيخان لما وراء السور، خيل لها كما لوٍ إنها سمعت تغريد بلبل وحيد، على أيامهم كانوا يعلقون قفصاً من جريد النخل يضم بلبلا، احساس البلبل بالانحباس مقارنة بالحرية المتاحة لعشرات الطيور التي اتخذت من أغصان السدرة مكاناً لسكناها، شكوى حبيس القفص واستجابة الطلقاء.. خنست لداخلها قليلا، لا وجود لتغريد بلبل. ماذا لو أنها.. بترت تساؤلها مُتخذة قرارها. أطلّ أولا، توجهت نحو زاوية السور، ارتفاع الأرض يسمح بإلقاء نظرة على الحوش، رأت الأوراق الجافة للسدرة تغطي أرضية الحوش كما البساط المرقش، أبواب الغرف ونوافذها مطبقة على ما بداخلها، كان في بال عائلة محمود عباس أنهم بسبيلهم لأن يعودوا بعد ثلاثة أشهر، شجيرات الجوري آلت عيدانا يابسة، لم تحتمل البقاء حيث هي، التفتت لقدم خير. تعال. استجاب الأخير، مقترباً. قف ولا تتحرك. امتثل من فوره. صعدت فوق



ظهره، ثبتت قدميها عند كتفيه، صار بمقدورها أن تتسلق السور دون مشقة تُذكر. طمأنت قدم خير. أغيب دقائق. حاذرت هبوطها في الحوش، لن تعاني صعوبة مماثلة عند إزماعها المغادرة، تستطيع فتح باب المنزل من داخل، تفحّصها المكان، هناك حنفية ماء عند طرف الحوض المطوّق لجذع السدرة، اقتربت من الصنبور، اندفع الماء بالأزيز المصاحب، تنبهت لوجود فجوة بدت لها غريبة في منتصف جدار المطبخ. كيف لهذه الفجوة. اقتربت، حفّزها فضولها، أطلّت عبر الفجوة، بالرغم من عتمة الداخل رأت حطام طابوق ينتشر على أرضية المطبخ، أعملت ذهنها، كما لو أن أحدهم أحدث هذه التخريب، مدت يدها لأكرة الباب، استجاب الأخير، تبددت العتمة، واجهتها حفرة في أرضية المطبخ، رأت ما يشبه القمع الحديدي وسط الحفرة، أحست جفافا في فمها. تبعات حربهم. تراجعت محاذرة، عجز ذهنها عن أن يستوعب كيفية وصول هذا الشيء النشاز لهنا، اندفعت مسرعة صوب باب المنزل، عالجت مزلاجه الحديدي، تفاجأت بوجود قدم خير أمامها، تفاجأت أكثر برؤية نائب ضابط صادق واقفاً مبعدة خطوات.

استقبلها قدم خير بإيماءة رأس في حين قال لها نائب ضابط صادق. أمرني ملازم عبدالكريم أن اتفقّدك. أوشكت تسأل. خير. لولا متابعته. توجّهت لبيتك، لم أجد أحداً، لدى عودتي رأيت حمارك واقفا هنا. دار في ذهنها أن تنوّه بنباهة قدم خير، تذكّرت دواعي قلقها، قررت الاستعانة بخبرات محدثها. تعال لدقيقة



واحدة. سبقته داخلة، قادته حتى باب المطبخ. ما هذا. أشارت نحو القمع الحديدي النابت في حفرة الأرضية، أجابها. دانة مدفع. لم تدار جزعها. هل هي خطرة. انفرجت شفتاه بابتسامة هدفت لتبديد خوفها. ما دامت أدّت مهمتها لدى انفجارها صارت حديدا خردة. راقبته لحظة اقترابه من ذلك الشيء، انحنى عليه، مدّ يده له، حرّكه بشكل لولبي قبل أن يقتلعه من حفرته، رأت تشظي الحديد عند رأسه. كيف وصلت دانتهم لهنا. من مرابض مدافعهم ما وراء خطوط التماس. لم يتبادر لذهنها أن تسأله ما الذي يقصده بخطوط تماسه، تابع موضحا. تصادفين عشرات من الدانات إثر سقوطها على البيوت أو وسط البساتين. غمغمت منزعجة. يوجهونها للبيوت أو يطلقونها على النخل. حدث أن تعرّضنا لإصابات مباشرة في خيمنا. شاب حزنه صوته. قدّمنا شهداء. شاركت متسائلة. متى ينهون حربهم. لا أحد يعرف. حدّقت فيه مستغربة، اضطر لأن يستطرد. عندما يطيب لهم. ما عاد لديها سبب يدعوها للبقاء أكثر، مشت باتجاه الباب، لحق بها نائب ضابط صادق. ما الذي يريده ملازم عبدالكريم. يطمئن إن كنتِ تناولت طعام الغداء. غمرها شعور بالامتنان. فيه البركة. عادت سألت. كم الساعة الآن. الثالثة والنصف عصراً. أومأت باتجاه منارة المسجد. زمان كنا نعرف الوقت بسماع الأذان. ما الذي يفهمه الآخر من تعقيبها، استطردت. أتوجه إليكم بعد قليل.

تأكّدت من تثبيت أحد أوعية الطرشي فوق رحل قدم خير.



من باب الهدية. قالتها لحمارها أشبه بمن يشرك الآخر معلومته، غادرا منزل عبود الأطرش، سلكا الطريق باتجاه الشط حيث موقع العسكر. وسط حالة ذهولها عندما حُمِلتْ لموقعهم صباحا لم تتوفر لها فرصة رؤية مفردات المكان كما يجب، كان وعيها يعمل باتجاه واحد يتمحور حول ضرورة ضمان بقائها. سألت قدم خير. ما رأيك. أصدر الأخير ما يشبه عطاسا مخنوقا، قالت له. أعدك آخذك للشط تشرب منه مباشرة. لامست وجهها نسمات باردة قادمة عبر امتداد الطريق شرقاً، المبنى القديم الذي كان إسطبلا لخيول السيد طالب باشا النقيب يقع يمينا، بيوت الخدم والأتباع يسارا، رأت حفرة أعلى أحد الجدران، العائدة للإسطبل. ما الحكمة من إطلاقهم داناتهم هكذا. محاذاتها بوابة القصر، رأتها مقفلة يعلوها الغبار، سمعت غمغمات رجالية، رأت خيما صغيرة مموهة وسط البستان المطل على الشط، رأت الشط متراميا مدّ النظر، راودتها نفسها أن تركض، استرعى انتباهها صوت ملازم عبدالكريم مضمنا استغرابا. ما الذي جئت به على ظهر حمارك. كان يقف أمام خيمته، قالت له. نغصة. لم يفهم قصدها. تابعت. بستوك طرشي. أبدى اعتراضه. العسكر لا يأكلون الطرشي. أبدت دهشتها. لماذا. حار بإجابته لثانيتين. لأن الطرشي من الكماليات. لم تجادله أكثر، أنزلت الوعاء عن ظهر قدم خير، ركض الأخير صوب الشط، بادرت أم قاسم لغطاء الوعاء، عالجته، عمّت الرائحة المغوية للطرشي هواء المكان. اعترف لها ملازم عبدالكريم. من النوع الفاخر. قالت واثقة. سيكون له شأنه مع وجبة سمك مشوي. شفّ صوته بهامش أساه. نحن لا نأكل



السمك المشوي. أومأت نحو الشط. الخير وفير. قال لها. لا بد لنا من الالتزام باللوائح المقررة. لماذا. ضحك. تساؤلاتك مشروعة لكننا نخضع لنظامنا المقرر من جانب قيادتنا. احتفظت بلماذاها الأخيرة، أعادت لوعاء الطرشي غطاءه. لم تدار شعورها بالإحباط. ما دمتم لا تريدونه. ضحك ثانية. لكننا لن نرفضه. تطلعت فيه مستفهمة، تابع. لأنه هدية منك. شاع ارتياحها وجهها. شكراً. لم يدار فضوله، أشار حيث وقف قدم خير مواجهها الشط. ما الذي يفعله حمارك. وعدته أن يشرب من ماء الشط. بلغت دهشته أقصاها. وعدتِ حمارك.

أكلت الوجبة التي قدموها لها على مهل، لم تنوه بملاحظتها. هذا الطعام مالح زيادة. استأذنت ملازم عبدالكريم. عساك تسمح لنا أنا وقدم خير نقوم بجولة قرب الشط. قال. لا مانع ما دمنا نعيش وقت هدنة. ذهنها بالكيفية التي يعمل بها غير مؤهل لقبول احتمال استهدافها من جانب عدو مجهول. سارع قدم خيرالتحق بها، مشت على طول الساحل، بدءا من السد الترابي لمدخل نهر سيد رجب وصولا للسد الثاني عند مدخل نهر الچومة، آلمها أن ترى مياه الشط تتطامى حية نابضة، في حين آل النهران خندقين عميقين مزدحمين بالقصب والبردي والأوحال. كيف لهم أن يحكموا على البساتين بالموت. ابتعادهاعن موقع العسكر حرن قدم خير واقفاً، فهمت بادرته، تعرفه يسألها امتطاء ظهره، قالت له بمحبة. لأنك تصر. فاجأها توجه بها لعند الباب الموارب لبيت محمود



عباس، ضحكت. كأنّك تفكر نيابة عني. استعادت منظر الحنفية بالماء المتدفق منها، راودها قلقها. الحوش وفائض الماء. ترجلت عن ظهره. بإمكانك الدخول. سارعت لإغلاق الحنفية، الماء الفائض عن الحوض غطّى أرضية الحوش، رأت قدم خير يدس بوزه خلل نزر الماء يلتقط حبّات النبق، يمضغها متمهلا، تطلعت للسدرة. يلزمكِ الصبر ريثما تخضّر أغصانك. التفتت لجدار المطبخ، هذه الفجوةَ بالتشويه المترتّب، ما دام لا وجود لأي من أهالي السبيليات عداها يلزمها أن تتصدّى للمسؤولية..

انبعث قرارها من داخلها. يجب أن لا يبقى حديدهم المتشظي هنا. تحرّكت صوب المطبخ، لحق بها قدم خير، وقفت أمام الحديد، قالت لقدم خير. ساعدني على نقله خارج البيت. رفعت الحديد، ثبتته فوق رحل قدم خير، سبقها الأخير خارجا، مشت وراءه. لم تفكر بمكان محدد تأخذ له نفاية حديدهم كيف لقدم خير أن يفعل، رأته يتابع مشيه أمامها مبقياً على مسافة بضعة أمتار بينهما، تجاوز باب منزلها، واصل سيره صوب طريق أبي الخصيب، تبادر لها تساؤلها. لعله يأخذني لمقبرة عز الدين. خالف توقّعها، مال يميناً، دخل مساحة أرض فضاء حيث أكداس مخلفات بناء وعدد من أنابيب إسمنتية عملاقة تأخّرت الاستفادة منها بسبب نشوب الحرب، أشادت به. أحسنت التصرف. وجّهته لحفرة جمع القمامة، ألقت بالحديد هناك. عودتها لمنزلها، جلست القرفصاء أمام فوهة قبر زوجها، تطلعت للطابوق المرصوف في الداخل، ضمّنت رجاءها



صوتها. لأنك تسمعني.. السبيليات الآن، عشرات العسكر، أعرفك غير معني بما يحدث حولك، فيما يخصنا أنا وقدم خير لا خوف علينا من تبعات حربهم، كل واحد يموت في يومه، خوفي الحقيقي هو انقضاء مهلة الأيام العشرة لتحلّ لحظة الإبعاد. أمعنت تفكيرها برهة. أعدك لا أتخلّى عنك.

ليلتها الأولى في سرير الزوجية، لو حاولت استحضار تفاصيل ليلتها الأخيرة ما قبل الإخلاء، قلق جماعي، أسئلة حائرة معدومة الإجابات، الغد الآتي كيف، إلى أين، حتى متى، لم تسنح الفرصة لأي منٍ عائلتها كي يأوي لفراشه، تتذكر توجيهها سؤالها لزوجها. من يتولى رعاية بيتنا في غيابنا. تتذكره مال بوجهه جانباً لكيلا تلحظ دموعه. يا بو قاسم. ودّت لو تناشده. ليس ما يدعونا لمداراة أحزاننا. أرهفت أذنيها للجوار، لا حضور لأصوات الليل المعهودة، الحياة بمظاهرها كافة تحتاج عنصرها الأساسي.. الماء، لا تجزم متى أغفت، لكنها حالة الصحو وسط زمن لا ملامح له، شغلها حضورها الطارئ لحظة إزماع بو قاسم مغادرة المنزل. ما الذي يدعوك لأن تخرج في هذا الظلام الحالك. أجابها. ظلام الليل مدعاة أمان. قالت له. ما عاد هناك أمان، المكان يعج بالجنود. تخاله هدف لطمأنتها. الجنود غير مهتمين برصد ما يدور خارج خيمهم. رأته يحمل فأسا، دققت نظرها، ليست سوى فأس عبود الأطرش، تساءلت مستغربة. لماذا الفأس. لا بد أن يبادر أحدنا للقيام باللازم. ساررت نفسها. بدأ يتحدث بالألغاز. هل فهم ما يدور في رأسها. ليست ألغازا يا أم



قاسم. تابع. سواترهم الترابية عند مداخل أنهارنا.. أبقى جملته معلّقة. حاجّته. سواترهم الترابية ليست أمرأ هيّنا. أدهشها رده. بانتصاف الليل يبلغ مدّ الشط أقصاه يكاد يلامس سطح السد.. فإن حفرنا مجرى صغيرا في السطح تدبّر الماء قوّته شاقا طريقه نحو الداخل.. استبدت بها دهشتها. أنت تتحدث عن الماء وكأنه شيء حي. حسمتها إجابته. هو كذلك. ما بين شكّها ويقينها تظنه انفلت خارجا، حضرتها حواسها، فتحت عينيها، نائمة في سرير الزوجية، الليل وهذا الصمت المطبق، واتاها إدراكها، بو قاسم ميت. غمغمت. بسم الله الرحمن الرحيم. هفا قلبها لزوجها، اعتدلت جالسة. لماذا الفأس. تملكتها رغبة التوجه لعند قبره، حثّت خطوها خارجة، واجهت حفرة القبر، بدأت تتلو ما تحفظ من قصار السور.



7

سكنت هواجسها إثر تلاوتها للمعوذات، تطلّعت في عمق القبر. ما الذي تريد إبلاغه لي. لم تتوقع إجابة ما. حاول ذهنها أن يستعيد جانباً من تفاصيل أحداث مرت بها منذ وصولها لهنا، ذهنها غير مؤهل لاستيعاب حقيقة كونها موجودة منذ أمس فقط. تحرّكت سعفات الحلاوية استجابة لهبة رياح عابرة، لمّت أطراف ثوبها حول جسدها، الهواء بارد نسبياً، أنوار الفجر آخذة تنتشر تدريجيا، سمعت صوت شخير قدم خير معلنا وجوده داخل الحظيرة، ما عادت مسألة إطعامه تشغلها. يا قدم خير. استجاب مغادراً حظيرته، وقف منتظرا، قالت له. تستطيع الذهاب للدليشية. عندما لا تجد ما تنشغل به تحضرك احتياجات جسدك، أحسّت قرصة في معدتها، يلزمها أن تجد ما تشبع به جوعها، ليس بمقدورها أن تُبقي أمور تغذيتها للصدفة، ماذا لو إنها تفقّدت عشّة مطبخها، حثّت خطوها بالاتجاه، الموقد المهجور منذ يوم الإخلاء، رف العلب، شيء من الملح، بعض التوابل، الوعاء الفخاري الخاص بحفظ الرز،



القليل منه خير من عدمه، فرشت خرقة قماش في الحوش، أفرغت فوقها حبات الرز، يتوجب عليها أن تتأكد من صلاحيته للطبخ، تنقيته من هذه الحشرة الدقيقة التي تشبه القمل، وعاء ثان يحوي حفنة عدس، الأخير لا يخلو من حشراته أيضا، لكي تُنقّي حبوبها يلزمها تعريضها لأشعة الشمس.

تملكها فجأة شعورها بالأسى، الكميات المتبقية من الحبوب قليلة تكفيها يومين، ماذا بخصوص أيام لاحقة، من غير المناسب أن تعتمد على عطايا العسكر، شرد ذهنها وراء توقّعاتها، خبرتها تؤكّد لها وجود خزين مؤن بما يغطي احتياجات الطبخ في بيوت الموسرين، لأنّها وحدها من بين الأهالي هنا يحقّ لها وضع يدها على ما هو متوفر، تذكرت مطبخ بيت محمود عباس، تواجدها أمس، لم تلق بالا للأوعية المتراصة عند الجدران، لم تلتفت لباب غرفة الچيل القريبة من المطبخ. عاد قدم خير بعد ساعة. نذهب لبيت محمود عباس. تطلعت لامتداد الطريق، لا أثر للحياة في مثل هذه الساعة من الصباح، أيام ما قبل كانت السبيليات تضج بالحياة، تجاوزت بوابة سور مدرسة البنين، ليس من العدل أن يعود الصغار فيكتشفون دمارا مترتبا عن إصابات دانات عابرة، قرّ في وعيها. أجد فرصة أتفقّد المدرسة من داخل. اجتيازهما باب المنزل المعني بدأ قدم خير بحثه عن حبّات النبق، التقطت بدورها واحدة، مسحتها بثوبها، رفعتها لفمها، هذا الطعم الفريد، ازداد إحساسها بالجوع، رأت أوعية فخارية عملاقة مرصوفة داخل المطبخ، رفعت غطاء



الأول، يحوي كمية رز تكفيها لأشهر، أحست انقباضا في صدرها، لا تضمن بقاءها هنا بعد يوم نوروز، أعادت غطاء الوعاء، يبقى جهد تنقية الرز من حشرته، انتقلت للوعاء الثاني، كان مليئا بدقيق القمح، تلفتت حولها، رأت صفيحة حديدية خاصة بإعداد الخبز، لن يستغرقها الأمر سوى ساعة. وهي تمضغ معمول الدقيق بالزيت والسكر مرّت عيناها على نثار الطابوق فوق أرضية المطبخ، تخلّصت أمس من الحديد المتشظّي، في حين بقي تشظي الجدار، كفّ فمها عن المضغ فجأة، وضعها يدها على ما هو عائد لأهل هذا البيت يجب أن لا يكون من غير مقابل، شاع ارتياحها في داخلها عندما توصلت لقرارها. أصلح جدار مطبخهم. بعد انتهائها من تناول وجبتها بدأت بجمع نثار الطابوق، توجهت لعند حوض السدرة، الأرض بعد إغراقها بالماء أمس باقية طينية، استعانت بالطين لرصف الطابوق داخل فجوة الجدار، تطلّعت لنتيجة جهدها، تعترف إنها لا تجيد حرفة البناء، لكنها فعلت ما استطاعت، نقّلت نظراتها على الأغصان اليابسة لنبتات الجوري. من أين لي بنبتة جوري حية كي آتي بأقلام من سيقانها أغرسها هنا.

طاب لها أن تتولّى تنظيف أرضية الحوش من كدس أوراق السدرة، شمّرت أطراف ثوبها، بدأت عملها، خلال انشغالها أطلق قدم خير شخرة تنبيه. ما بك. تناهت لسمعها طرقات على الباب، ليس بيتها لكي تأذن لأيّ.. لكنه واقع الحال، رفعت صوتها. الباب مفتوح. دخل ملازم عبدالكريم يتبعه نائب ضابط صادق، انفرج



فم الأول بابتسامة مستغربة. لماذا تتعبين نفسك. نفت. ليس تعباً. أحاطت المكان بإشارة يدها. يستوجب التنظيف. تجاوز ردّها. للاطمئنان عليك ذهبنا لبيتك.. قاطعته. لم أنظّف حوش بيتي بعد. تجاوز ردّها، أبدى استنكاره. أنت أبقيت على قبر زوجك مفتوحا. فاجأته إجابتها. لأني لا أضمن بقائي إلى جانبه. هل تأخذين رفات زوجك عند مغادرتك. بناء على طلبه. هل يتراءى لك زوجك باستمرار. مرّة كل ليلة.. إن كان وقتك يسمح رويت لك تفاصيل زيارته لي فجر اليوم. ابتسم مداريا فضوله. وقتي يسمح. حدّثته عن فأس النجار التي تزود بها بو قاسم، ونيته بالعمل على هدم السدين الترابيين اللذين أقمتموهما عند مدخل نهر سيد رجب ونهر الچومة. عانى ملازم عبدالكريم ما يشبه الانشداه. هذه السواتر الترابية موجودة في مواقعها ذاتها قبل مجيئنا لهنا، الوحدات الهندسية التابعة للجيش هي التي أقامتها. ما الحكمة من وجودها. نحن ننفذ الأوامر ولا نطرح أسئلة. هل عانت أم قاسم شعورا بالإحراج. لم أكن أقصد. همس نائب ضابط صادق للآخر ببضع كلمات مُلفتا نظره لجدار المطبخ حيث الرقعة حديثة الترميم. لماذا تتجشمين هذا العناء. ردّت. رؤية فجوة الجدار تؤذي العين. تقدّم الأول من باب المطبخ أطل، خبّر رئيسه. أظنها رفعت مقذوفة المدفع من مكانها. أين ذهبت بالمقذوفة. عانت أم قاسم حيرتها. لم أكن أعرف أنكم تريدونها. أضافت. ألقيت بها داخل حفرة المخلفات. غمغم كمن يحدث نفسه. أنت امرأة غير.



إثر انصراف الرجلين أنهت كنس الحوش، تذكرت غرفة الچيل، هي لم تتفقدها بعد. ارتفع حاجباها احتفاء، رأت العديد من أكياس الرز والطحين والسكر وأوراق الشاي والعدس والماش وبقوليات أخرى، مع صفائح زيت ومثلها للتمر والتمر المعسل. عساه لم يفسد. أخذت حبة تمر معفرة بالدبس والحبة الحلوة والسمسم، ألقمتها فمها، طعم رائق لا مثيل له، صادفتها صفيحة مليئة بالخلال البريم المجفف بعد الطبخ، أخذت حفنة دستها في جيبها، نشط خيالها. هذه حصيلة خزين بيت محمود عباس ماذا بخصوص بيوت موسرين آخرين. لدى استعدادها للمغادرة طافت بعينيها أرجاء الحوش. من أين أحصل على سيقان ورد جوري. إعمالها ذهنها. لا وجود لنباتات حيّة إلا عند ساحل الشط حيث الماء. التفتت لقدم خير. لعلنا نعثر على بغيتنا. استدركت. تلزمني زيارة مقام سيد رجب. نشط حمارها، سبقها خارجاً. الأماكن بدلالاتها، باستحضارها لأحداث ووجوه ناس تمتّ لزمن ماض، خلو المكان من أهله، الجدران والأبواب المقفلة على الصمت ولّدت قنوطا، الحياة تعاني تحنيطاً قسرياً، تتذكر الطريق الرئيسية، الأزقة المتفرعة، الحركة الدائبة للأهالي، حضور الصبية بألعابهم وصراخهم، الدجاج وأنت تراه يتراكض أمامك لدى مرورك.. ترهف أذنيها، الإقفار والصمت المطبق، تجزم أنه غياب الماء، جفاف شبكة الجداول والترع، ولا خيار أمام الكائنات الحية القادرة على الانتقال سوى الإخلاء نحو الأخضر، بو قاسم نبهها لكيفية معالجة هذا الموات، الأمر غير المعقول تمثّل بلجوئه لفأس عبود الأطرش، أنت حين تواجه أيّا من سدودهم،



ارتفاع يوازي مستوى الأرض المحيطة وعرض عشرة أمتار، بما يسمح لمرور آلياتهم، أنّى للفأس قدرتها على..

تتجاوز باب بيت جواد الدليشي، العتبة الرخامية نصف الدائرية والنوافذ الخمس المطلة على الطريق بما يمنحه تميّزاً مقارنة ببيوت مجاورة، تضع في حسبانها احتمال تفقّدها منزل الدليشي مع بستان يؤلف حديقته الخلفية. يسبقها قدم خير، يدخل زقاقا يمينا، هنا بيت صاحب سيارة الأجرة كاظم بطّة، اكتسب لقبه نسبة لزوجته السمينة ومشيتها المتمايلة جراء وزنها الفائق، ابنها عادل حاز لقبه أيضاً، عادل بطة، ابنتها عديلة برشاقتها وحسنها الملفت، أخذت لها تسمية خاصة بها، عديلة الحلوة. تصل إزاء النوافذ العملاقة لمسجد سيد رجب، اللون الأزرق لأطر النوافذ بالتجاور مع اللون الأبيض للجدران المطلية بالجص، وحده هذا المسجد لا مئذنة له، رواية توارثها أهالي السبيليات، حين شرع الجد الأول لآل النقيب قبل ما يقرب من مئة سنة ببناء هذا المسجد ارتأى أن يرفع سقفه كلّه بما يوازي علو مآذن مساجد القرى المجاورة مكتفيا بإضافة لمسة معمارية أشبه بطابية صغيرة عند كل زاوية من الزوايا الأربع لسور السطح. سارع قدم خير خطواته انحرف يساراً صعد مرتفع أرض المقبرة القديمة المحوّطة لمقام سيد رجب، حثّت بدورها خطوها واجهت المبنى الأبيض للمقام، ارتفاع السقف والنوافذ العملاقة، بما يحيله نسخة مصغّرة للمسجد مع وجود قبّة تمنحه مهابة. إلى يسار المقام توجد سدرة عملاقة، تتذكرها تمتد بظلال أغصانها لعشرات



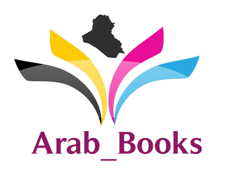
الأمتار، تغطي مبنى المسجد والمقام وجانباً من مساحة المقبرة، تتطلّع إليها، أغصانها تكاد تكون عارية، يُقال إن وجود هذه السدرة سبق بناء المسجد والمقام، بما يجعلها أكبر أشجار البصرة عمراً، تتذكر طعم نبقها المائل للحموضة، يشيع بعض المتطيرين أن حموضتها ناتجة عن اعتمادها تغذيتها على عظام الموتى. أيام ما قبل نشوب الحرب كانت هذه السدرة مأوى لآلاف مؤلفة من الزرازير والبلابل والحمام، تصل أصواتها مجتمعة ساعة شروق الشمس أو غروبها حتى أبعد بيت في القرية، كيف لغياب الماء أن..

إطار الباب الخشبي المفضي لطريق جانبية توازي نهر سيد رجب ما زال في مكانه، واجهت خندق النهر الجاف، في الجانب الآخر أرض زراعية عائدة للسيد زيد النقيب حيث كان مجلسه المعتاد ساعات العصر من كل يوم، سمّاها الأهالي مزرعة أم التفاح جراء زحمتها بأشجار التفاح على وجه الخصوص، تتطلع إلى الجانب الآخر، يترسب طعم المرارة تحت لسانها، أين الصفوف المتوازية لأشجار التفاح تتخللها أشجار المشمش وعرائش العنب، لم تر غير عيدان رمادية اللون، تلفتت الجهات، الجفاف عنوان الموت، خنست لداخلها قليلا، نفضت رأسها بدلالة الرفض، لا مكان لمقترح بو قاسم وفأس عبود الأطرش. اقتربت من المدخل المواجه للشرق، هبطت الدرجات الأربع، هناك دكّتان رخاميتان على الجانبين، بقايا حصران الخوص، وباب خشب صاج عملاق بآثار حنّاء عالقة، في الماضي يبقى هذا الباب مقفلا برتاج ذي كيلون حديدي مودع لدى



زوجة إمام المسجد، لا يفتح إلا عند وصول الزوار الذين يدفعون مقابلاً مالياً رمزياً لقاء إشراف المعنيّة على رعاية المكان وتنظيفه إلى جانب مسؤوليتها عن تسلّم نذورهم العينية، أين هو الكيلون الآن، دفعت الباب، استجاب الأخير مصدراً صريراً ملفتا، نشط أنفها تشمم هبّة هواء قادمة من داخل.

يجدر بها أن تبحث في بيت محمود عباس أو بيوت أخرى عساها تجد أعواد بخور، خطت داخلة، الإضاءة النهارية القادمة من صف النوافذ العليا المعززة بزجاج ملون تبعث شعوراً بالسلام الروحي، مستطيل الضريح المدثر بقماش ثقيل يزهو بتدرجات اللون الأخضر، الدكات الحجرية المقامة إلى جانب الجدران مفروشة بحصران النسل، رفوف رخامية مثبتة في الجدران باقية تحمل ترسبات شمع قديم، طبقة من الغبار الثقيل تغلف كل شيء، يجدر بها أن تولي المكان جانباً من وقتها، سمعت شخير قدم خير، تطلعت عبر فتحة الباب، رأته واقفاً خارجاً. بإمكانك الذهاب حيث تشاء. ابتعد قدم خير، تحتاج لأن تخلو لنفسها هنا، جلست أرضاً مسندة ظهرها للضريح، يا سيد رجب، ناشدته، تابعت متسائلة، متى تنتهي حربهم ويعود ناس السبيليات..



8

لم يسبق أن أحست بمثل هذا الخدر الذي ينشب في رقبتها، شاغلها سؤالها، كيف تتغلب عليه، في الوقت ذاته بلغ سمعها صوت شخير، حضرها وعيها، ليس سوى قدم خير، فتحت عينيها. كيف غلبني نومي. كانت على جلستها داخل ضريح سيد رجب، لا تجزم كم هي الساعة الآن، رأت قدم خير يقف خارج الباب. عاد إلي يتفقدني. لعله شعورها بالاطمئنان للمكان، مثلما أغفت هنا أغفت داخل مقام عز الدين. تحتاج لحظة تأمّل، أحلامها التي تراودها في اللا أوان تسبب لها حيرة، الحلم الذي سبق استيقاظها، غرابته وعدم قدرتها على فهم توالياته، رأت نفسها في سن12 سنة، تتمنّى أن تنام وتستيقظ ابنة 14، استثارتها كلمات تتداولها النسوة لدى وصفهن جمال فتاة ما. قمر 14. سألت أمها عن علاقة القمر بالرقم، أجابتها. اكتمال القمر بدرا.. تواتر حلمها، وجدت حالها تراقب غواية ابنها صالح بصيد السمك ناصباً شباكه عند مدخل نهر سيد رجب متحيناً منتصف ليلة 14 من الشهر الهجري قائلاً.



يبلغ المد أقصاه باكتمال القمر بدراً. تراقبه يتحيّن منتصف ليلة 28 أيضا قائلا. يبلغ المد أقصاه لما يتلاشى القمر تماما. تفهم سبب حضور ابنها صالح داخل حلمها ما دام مولعاً بصيد السمك، لكنها انشدهت عند ظهور زوجها حاملاً فأس عبود الأطرش. إلى أين. واجهته بسؤالها المستنكر، قال وهو يهم بمغادرة البيت. يتوجّب مد يد المساعدة لابنك صالح. أردف. لن يوفّق لصيد سمكة واحدة مع بقاء السد الترابي. حيرتها إزاء فهم حلمها، لو كان شأن سابقه صنّفته أضغاث أحلام، لكن تواليه داخل مقام سيد رجب.. أصغت لداخلها. لو أخذته على محمل الجد، من يفسره لي.

قامت بجولة متأنية حول المقام، تفحصت جدرانه من جهاته الأربع، أمر يدعو للفخر، الدانات القادمة من وراء الشط لم تنل جدرانه، رأت آثار اختراق إحدى الدانات لقبر مندرس، وأخرى مبعدة أقدام من جذع السدرة، التفتت لجدار المسجد، هناك إصابة بسيطة في ساتر السطح. المنظر يؤذي العين. سلكت الممر المؤدي لبركة ماء تخدّم مرتادي المقام، تتذكّر رواية يتداولها أهل السبيليات. أيام الملكية قبل الحرب العالمية جاء أحد شيوخ عشائر نواحي القرنة بصحبة زوجته العاقر، تقدّمت الزوجة بنذرها، عشرة رؤوس غنم إن تفضّل عليها الباري رزقها طفلاً، خلال تواجدهما أراد زوجها أن يتوضأ، رأى شريعة بدائية بدرجات من جذع النخل تستقي ماءها عبر جدول صغير يوفّر نزرا يسيرا من الماء، تبادر



للزوج أن يتقدّم بنذر خاص به. لو استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء زوجتي سعيت لإقامة بركة ماء مناسبة. قِيل حملت المرأة لتُرزق بصبي وفتاة معا، حلّ أوان وفاء النذر، قرر الزوج إقامة بركة تليق بالمقام، اشترى بستان النخيل الكائن وراء المقام، جعله وقفا عليه، وسّع جدول الماء الصغير، حوله لترعة تنتهي ببركة كبيرة مبنية بالإسمنت، لها درجات رخامية عريضة، طلب زراعة الأرض المحوّطة بأشجار توت شامي تتخللها نبتات جوري، مع مرور السنين أُهمل أمر رعاية البركة، رغم هذا بقيت معلماً يخص المقام. تقترب من البركة تحس مرارة في روحها، طبقة غبار بني اللون تغطي الدرجات الرخامية، لوهلة خاطفة خيل إليها إنها سمعت ما يشبه نقيق ضفدع، قاع البركة مغطى بالغبار أيضا، تبادر لها أن تهبط السلم حتى القاع، تتوجه نحو موقع اتصال البركة بالترعة، مساحة صغيرة موحلة مع قليل من ماء آسن، شاع في صدرها شعور بالفرح، رأت ثلاث ضفدعات تبرز رؤوسها من الوحل، لم تشأ إقلاقها، انسحبت وراء، طرأ لها.. الوحل المتبقي آيل للجفاف بعد أيام، الضفادع الثلاث مهددة بالموت.

يا قدم خير. تعرفه لن يحار جواباً، لكنها تحتاج من تشركه جزعها. ها هو نهارنا الثاني يمضي، باق لنا ثمانية أيام، ما الذي يمكن أن نفعله لكي نمنع هذا الموت أو ندفعه قليلا. احتشد صدرها بغضبها. تقاتلوا ما شئتم.. لماذا الماء. بلغت بيتها قبل غياب الشمس



بقليل، جاءت بجزء من القرآن الكريم، جلست قرفصاءها بمواجهة القبر المفتوح، بدأت تتلو ريثما حل الليل. وجّهت خطابها لزوجها. زرتني مرتين حاملا فأس عبود الأطرش ما الذي تريد إبلاغي به. أصغت لثوان. أين الحكمة في أن تتسلح بفأس نجارة لتهدم سدا يفوق حجمه بيتنا مرات. لامستها هبة ريح رطبة قادمة من ناحية الشط، تنبهت لازدياد حلكة الظلام، رفعت رأسها أعلى، غيوم رمادية آخذة تنتظم فسحة السماء فوقها، تذكّرت، هو موسم العواصف الرعدية والأمطار غير المتوقعة، لو أمطرت بغزارة غذّت الأرض اليابسة لأيام، سكنت لداخلها وهلة، عادت لمخاطبة رفات زوجها. عندما زرتني في منامي هنا لم آخذ كلامك لي على محمل الجد، مسألة انتظار المد حتى يبلغ أعلاه ثم حفر مجرى.. بترت جملتها. على حياتنا معاً كنت عندما أبالغ في نقل خبر ما، تبتسم بلؤم تقول.. حدّث العاقل بما لا يليق.. دار في بالي الآن أن أعيد مثلك عليك لولا زيارتك منامي داخل مقام سيد رجب لا يمكن أن تكون أضغاث أحلام..

أطبقت جفنيها، غافلتها ذاكرتها استعادت كلمات ابنها صالح حول بلوغ المد أقصاه مع اكتمال القمر منتصف ليلة 14 وكذلك منتصف ليلة.. شيء أشبه بالشرارة قدح داخل رأسها، ليلتها هذه هي 28 جمادي أول، بما يعني إن مد الشط يبلغ أقصاه عند.. قطعت تسلسل أفكارها. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. غافلها



ذهنها استعاد كلمات نائب ضابط صادق. الإيرانيون يقيمون وزنا لعيد نوروزهم يتوقّفون.. أيامهم المتبقية عن هدنتهم ثمانية، أيامها هنا بالمثل.. مفارقة عودة تعرّض المكان لدانات مدافعهم بحتمية ابتعادها عنه، تمثّلت منظر ثلاث ضفدعات وسط وحل بركة سيد رجب، لن تكتب لها الحياة. التمع الأفق الشمالي بالبرق، سمعت قصف رعد بعيد، أعقبه ما يشبه نهيق حمار في البعيد، تشكك أن يكون قدم خير، أسرعت للحظيرة، أطلّت، ليس هناك، تظنه حبس رغبته بالنهيق لأيام عدّة بما اضطره للتنفيس عنها، ترافق قصف الرعد للمرة الثانية مع النهيق إياه، بعد نصف ساعة نبهها قدم خير لعودته بشخيره، قالت له. لا بأس عليك. تكاثفت حلكة الليل مع بدء تساقط حبات مطر متفرقة، تملّكها قلقها. قبر بو قاسم. استعانت بقماش مشمع، نشرته فوق فوهة القبر منعا لتسرّب الماء، قالت له. ماء السماء بركة لكنني لا أريد لك البلل.عاود البرق التماعه مرّات، اشتد قصف الرعد مع تواتر سقوط المطر، آوت لسريرها حوالي الساعة العاشرة.

أين الفأس. سارعت نفت. لا أعرف. انشداه بو قاسم بلغ أقصاه. وضعتها عند طرف السرير قبل قليل. لم تخف استنكارها. ما الذي تفعله بالفأس. قال لها كمن ينهر محدثه. أنتِ تعرفين. تظنها ناشدته. وضّح لي. لم تسمع إجابته، سمعت دويا هائلا، ما أدراها إن الحرب لم.. استُفزت حواسها، انتفضت جالسة، فتحت عينيها وسط ظلام



الغرفة. اللهم اجعله خيرا. استجاب الجوار بقصف الرعد أعقبه تساقط المطر، هدأت نفسها قليلاً، حربهم لم.. استعادت حلمها، بو قاسم وإصراره على الفأس، السبيليات خالية من أهلها عداها. يعني أنا مسؤولة بصرف النظر عن تبعات محتملة. خرجت للحوش، المطر أشده، البرق يسبق الرعد أو يمهّد له، رأت قدم خير يقف عند مدخل الحظيرة مستعدا لمرافقتها، لم يطرأ لها أن تحتمي من المطر، الطبيعة كلها تحتفي به، الفأس المعنية بمتناولها، لا تستبعد حدوث تبعات بمسؤوليات إزاء.. عقاب لا تعرف كنهه، لكنه الإحساس الحاضر أن يقدم أحدهم يفعل شيئاً خارجاً عن مألوف العسكر. الطريق مستسلمة للمطر، وقف قدم خير متوقعاً أن ترتقي ظهره، قالت له. بعدين. حثّت خطوها، سايرها مستسلماً، دخلت زقاقا على اليمين، بلغت جسراً خشبيا يعترض نهر سيد رجب، وقفت، وقف قدم خير إلى جوارها منتظرا مبادرتها، قالت له. نهبط للقاع. سبقته نازله، حاذر مثبتا حوافره في الجرف خشية الانزلاق ريثما وقف عندها. ربتت رقبته قبل صعودها ظهره. نتوجه للسد.

مشى بها قدم خير داخل خندق النهر، بعد دقائق واجها قاعدة السد العملاق. ترجّلت، همست محذّرة. الصمت. بدأت تتسلّق جانب السد الذي بات زلقا جراء تشبعه بماء المطر، اضطرت للاستعانة بالفأس، وصلت مستوى سطح السد، أطلّت برأسها، لحظة التماع البرق رأت خيم العسكر مستسلمة لسياط المطر وراء



صف جذوع النخيل. يحتمون داخلها. انتقلت بعينيها للشط، رأته طافحا بماء المد محتفيا بتلقي سيل المطر، خفق قلبها حبّا، أكملت صعودها، توخيا للحذر آثرت أن تزحف فوق سطح السد ريثما بلغت جانبه الثاني حيث الشط، فاجأها مستوى ماء المد، فارقه عن سطح السد لا يتجاوز بضعة إنشات، استعانت من فورها بالفأس، مطلوب منها أن تحفر مجرى صغيرا، تسحب مياه الشط نحوها رويدا، تتقهقر بجسدها وراء متابعة حفر مجراها، تستجيب لها مياه الشط تنسحب لها، لم يقلقها قصف الرعد ولا اشتداد هطول المطر، بعد نصف ساعة بلغت الجانب الداخلي للسد، غمرها فرحها وهي ترى ماء الشط يأخذ طريقه نحو عمق الخندق الجاف لنهر سيد رجب، راقبت تدفق الماء لثوان، يصدق التوقع، للماء إدراكه الخاص به، ها هو يوسع ويعمق مجراه جارفا التراب في طريقه، تكاد تجزم أنه سيكتسح جانبا من السد. ارتقت ظهر قدم خير. نرجع. رسخ في يقينها وهي تسلك طريق عودتها أن نهرها الجاف مؤهّل لتلقي مياه الشط، بقي نهر ثان جاف. نقصد شريعتنا، استجاب قدم خير راكضا، سماء السبيليات باقية تمطر بغزارة.

عادت أم قاسم لتنفيذ خطتها ذاتها، الوصول لعند قاعدة سد نهر الچومة، تسلّقه، بلوغ أعلاه، حفر المجرى الصغير بسرعة تفوق حفر مجرى السد الأول خشية بدء انحسار مياه الشط جزرا. وهي تشرع بالتنفيذ تناهت لسمعها صيحات الجنود وهم يركضون صوب



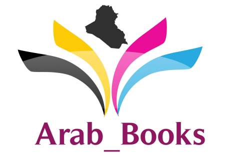
سد نهر سيد رجب، لعله الصوت العالي للماء باندفاعه القوي جارفا التراب في طريقه، انشغالهم هناك يبقيها في المأمن، شاعت ابتسامتها في داخلها، سرعان ما يسمعون صوت اندفاع الماء صادراً عن هنا، بدأت تحفر، أرض السد بالمطر الساقط صارت طينية أكثر بما منحها فرصة إنهاء مهمتها خلال وقت قياسي. بدء اندفاع الماء بارتقائها ظهر قدم خير، همست له. نعود لبيتنا. أرهفت أذنيها صوب الجوار، لا شيء سوى تواتر صيحات الجنود، ميّزت صوت ملازم عبدالكريم. نحتاج المزيد من أكياس الرمل. توسعت ابتسامتها لنفسها، تعزيز السد بالرمل والحالة مد تسمح باحتجاز أكبر كمية من الماء داخل النهر، خف المطر ليتوقف، خطفت نظرة للسماء، الغيوم آخذة تتفرّق، هبّت ريح شمالية قوية، أوان الصحو، أحست بتنمّل داخل أنفها. الله يستر. بدأت عطاسها، يلزمها بلوغ البيت حالاً، إعداد شراب زنجبيل، تحاشيا لإصابتها بنزلة برد. لحظة دخولها بيتها خطفت نظرة للطربال المثبت فوق حفرة القبر، لن تُخبر بو قاسم بإنجازها. هو يعرف. صرفت ذهنها عن فكرة إعداد شراب زنجبيل جراء شعورها الحاد بالإرهاق، أوت من فورها لفراشها.

مرة أولى يأخذها بو قاسم في نزهة كهذه، كانا يجلسان متقابلين داخل زورق صغير، المكان نهر سيد رجب، الماء حالة مد أقصاها، عنّ لها أن تسأله. إلى أين تأخذني. ابتسم بمحبة. لبستان أم التفاح. لم تخف قلقها. لم نستأذن مالك البستان. انفرج فمه بابتسامة



أكبر. ما دمت معي. قالها مشترطا، تابع. لن نصادف اعتراضا. ودت لو تسأله. لماذا. لكنه استطرد. أنت امرأة غير. تظنها سمعت هذا التشبيه في زمن آخر، فاجأتها كلمات بو قاسم. ملازم عبدالكريم شاب طيّب رغم كونه يلبس ثوب العسكر طول الوقت. شاغلها تنمّل أنفها، حاجتها لأن تعطس، انتفضت، انحسار حلمها رافقه شعور بالفقدان. بو قاسم متوفٍ. سمعت صوت شخير قدم خير، فتحت عينيها، واقع الحال بالتعقيد المحيّر، مغادرتها سريرها رأت قدم خير يقف أمامها، شمس الضحى تملأ حوش بيتها، سمعت طرقاً على الباب.




Arab_Books

9

طرقتُ الباب مرات عدة. انفرج فم نائب ضابط صادق عن ابتسامته. كنت لا أسمع غير شخير الحمار. أضمرت أم قاسم حسا بالاعتذار. لم أنم قبل انبلاج نور الصباح. تابعت. البرق والرعد والمطر الغزير.. أشارت لأنفها. وهذا الزكام.. بادرها محدثها خبره. ملازم عبدالكريم يطلب حضورك. استجابت متسائلة. خير. لا أجزم ما الذي يريده تحديداً. بقيت تتطلع إليه عساه يفصح، قال. أظنه سيوجّه إليك بعض الأسئلة. دارت شعورها بالقلق. حول ماذا. لعله تعاطف معها. بخصوص ما حدث البارحة. قالت مبدية تسليماً. لا يتحكم بالمطر إلا الباري عز وجل. الأمر يتصل بانجراف السدّين. شحنت صوتها باستغرابها. كيف حدث ذلك. تابعا مشيهما، التحق بهما قدم خير، التفتت أم قاسم للأخير. لك أن تذهب لتأكل. عاد الأخير أدراجه. لم يستطع نائب ضابط صادق مداراة إعجابه. حمارك يفهم عليك. أجابت. أحيانا. استطردت راجية. أظنك تعرف نوعية أسئلة ملازم عبدالكريم. لا أعرف. هل



يشك بأحد. أظنه يشك بعمل تخريبي. من يتسبب بالذي تقول عنه. يجب أن يكون أحد ألأعداء. لماذا أحد الأعداء. حار بإجابته وهلة. أقيمت هذه السدود منعا لتسلل ضفادع بشرية. ضفادع ماذا. جنود مدربون يغوصون مسافات طويلة. لم تقل له. لم أفهم. أطلق من جانبه زفرة شاكية. دانات مدافعهم هي التي تصل إلينا لا ضفادعهم البشرية.

كان ملازم عبدالكريم داخل خيمته. رأته متجهم الوجه. صباح الخير. جاء رده مقتضبا. أهلا. تملّكها قلقها، دار في بالها إنه يعرف شيئا بخصوص جهد البارحة، فاجأها سؤاله. أين زوجك. تجاوزت انشداهها. في البيت. أكدت. في الحفرة. ناورها متشككا. في البيت أم في الحفرة. حرنت لثانيتين. ضمّنت صوتها ألمها. لا تنزعج لو قلت أنت تحيّرني. تابعت شاكية. ماذا تريد مني. رد بجفاف. سماع الحقيقة. تساءلت بألم. أية حقيقة. مع من جئت لهنا. مع قدم خير. أسألك عن البشر. لا أحد. أشك بوجود مجموعة أشخاص. أين. تجاهل سؤالها. بإيعاز منك تولوا تخريب السدّين. تملّكها فزعها. أنت تظلمني. شكوكي مبنيّة على اعتراف من جانبك. أقسم بالله العظيم إني جئت مع قدم خير. حدّق في وجهها. كلامك عن زوجك وتسلحه بفأس كي يهدم.. قاطعته. تعني زيارته لي في المنام. لا بدّ من وجود ارتباط بين النية بالفعل وارتكاب الفعل. لو قالت له. لا أفهم. سنكتشف الفاعلين حتما. غمغمت متمنية. إن شاء الله. ليكن في علمكِ.. صوته يحتد بوعيده. إذا توصلنا



لعلاقة بينك وبين مخربين متوارين عن الأنظار.. لو قالت له. لا أفهم. لم يخفف حدته. أغلب الظن إنك تتظاهرين بقصور الفهم. بدرت عن يدها حركة كأنها تنشّ صوته من أمام وجهها. نهرها. لماذا تفعلين ذلك. هوّمت قبل أن تتمالك توازنها حتى لا تتداعى، غمغمت بصوت متلاشٍ. تعبانة. بركت أرضا منطوية على جسدها، تأمّلها حيث هي لثوانٍ، هل تبادر له أنه بالغ بشكوكه تجاه هذه المرأة المسكينة، أطلق زفرة تسليم. لكِ أن تنصرفي لشأنكِ.

مغادرتها الخيمة، التفتت يساراً، السد المقام على نهر سيد رجب يقع على مبعدة عشرات الأمتار، حددت بصرها بالاتجاه، رأت جانبه الأعلى مؤلفا من أكياس رمل، عوضوا التراب بالرمل بما حجز الماء الذي غمر النهر، منعه عن العودة للشط عند الجزر، بادرتهم المرتجلة هذه وفّرت سقاية أسابيع، فإن مرّت هذه الأسابيع لا تجزم أم قاسم بحدوث معجزة أخرى، لا تضمن إن كانت تستطيع تمديد فترة إقامتها هنا بعد حلول عيد نوروز. في طريق عودتها لاقاها قدم خير، قالت له. نذهب لتفقد ضفدعاتنا الثلاث. آثرت أن ترتقي ظهره، زكامها الذي لم تتخفف من بعد واستجواب ملازم عبدالكريم لها استنزفا قواها، تعترف له بفطنته، لكنها لم ترتكب جريمة تحاسب عليها إلا إذا كانت بادرة إدامة الحياة جريمة، قناعتها تفيدها أنه ما زال يظنها شريكا محتملا، مستبعدا احتمال أن تكون الفأس هي الأداة أو إنها وحدها دون شركاء رجال، وما عرف بالقوة الكامنة في الماء من أجل أن يكون على طبيعته. سبحانك يا رب. هتفت عاليا عندما رأت البركة طافحة



حتى حوافها بالماء، ترجّلت من على ظهر قدم خير، هرعت للماء، انحنت عليه، غرفت ملء كفيها، غسلت وجهها قبل أن ترفع نظرها للسماء. لك الحمد والشكر يا رب لأنك هديتني لفعل.. بترت جملتها، بدأت ثانية، الحمد لك لأنك حميتني من شكوك تولّدت في نفس ملازم عبدالكريم. التفتت لقدم خير، رأته يقترب ينحني على الماء يعبّ منه، جالت ببصرها فوق سطح البركة. أين ضفدعاتنا الثلاث. باغتتها ضحكة احتفاء هزّت لها جسدها، رأت عشرات الضفادع بأحجام متفاوتة مصطفة لصق الجانب الإسمنتي للبركة لا يظهر منها غير رؤوسها، أرهفت أذنيها لعلها تسمع نقيقاً صادراً عن أيّ.. لم يحدث في التو. أنتن في الأمان. لحظة ابتعادها سمعت نقيق إحداهن لتستجيب جوقة منهن.

اجتازت المقبرة، صارت بمواجهة النهر. شاهدته أقرب لأن يكون ممتلئا، الماء أخضر غامقا يغلب عليه اللون الترابي، إنْ تسببت فترة الجفاف الطويلة بموت أشجار الفاكهة يبقى العزاء بقرب استعادة النخيل والسدر حيويتها، التفتت لقدم خير، فهم ما يجول في ذهنها، اقترب، ارتقت ظهره. نذهب لبيتنا. مشى بها متباطئا، يعرفها تحتاج تتأمّل مفردات الجوار. إلى اليسار من الطريق المسفلتة يقع منزل ياسين عبدالخضر الملقب بأبي الأولاد، بعد زواجه رُزق بولد تلاه ثان وثالث ورابع، بقي يحلم بأن يُرزق ابنة، بعد خلفة تسعة صبيان جاءت الفتاة، جميلة نسخة عن أمها، حاذت سور بستان صبري المتصل ببيته، رأت جانبا من سعفات عريضة لنخلة



الخصاب المعروفة لدى أهالي السبيليات كونها تُعطي رطبا أسود اللون لذيذ الطعم حتى أواسط فصل الشتاء، عند خاصرة بيت صبري يقع بيت محمود يليه بيت سبهان يليه بيت عبد المحسن بالنخلة البرحية الكائنة وسط حوشه، يليه بيت فهد، وأخيرا بيت عبدالله، ستة بيوت لستة أخوة تسببت الحرب بتشريدهم مع عوائلهم، لو أنها دخلت أيا من هذه البيوت لاستطاعت بلوغ بيوت الباقين عبر فتحات في الجدران الداخلية للغرف أو استعانة بالأسطح المتصلة ببعضها، قبل بلوغها منزلها تفاجأت برؤية نائب ضابط صادق. وصلت منذ ربع ساعة. خير. ابتسم بود، مد لها لفافة ورق بدت كبيرة. ما هذا. ست قطع من خبز الجيش. أكمل. بتوجيه من ملازم عبدالكريم. التمعت عيناها بامتنانها، غمغمت. هذا كثير. ساررت نفسها. بادرة الرجل تؤكّد صفاء نيته.

الإنجاز المرجو يحقق نوعاً من صفاء ذهني، صباح يومها التالي تذكّرت حوش منزل محمود عباس، حوض الورد الجاف تحديدا. مدى إمكانية زرع ورد حي. استعادت منظر حرش ورد جوري عند ضفة الشط في الطرف الأبعد لبستان مترام يُدعى الحلبي عائد لآل النقيب مسافة عشر دقائق جنوبا، الذهاب لهناك يقتضي المرور بخيم الجنود، وازنت خياراتها، الدانات العابرة ما زالت قيد توقيت نوروز، لا مانع من استكشاف المكان. مشى بها قدم خير نحو موقع العسكر أولا، ملازم عبدالكريم يجلس على كرسيه مواجها الشط، بعد أيام لن يتاح له ذلك، كمن يطلب الأذن قالت له إنها بصدد الذهاب



لبستان قريب. نبهها. خذي حذرك من دانات غير منفجرة. اجتيازها سد نهر سيد رجب، حضور ذكرى قريبة كانت هنا، المطر وفأس عبود الأطرش، لامست وجهها نسمات طرية عابرة من فوقِ المساحات المترامية للمسطح المائي، عبّت لصدرها شهيقاً عميقا، وقف قدم خير فجأة متطلعا لرقعة الأرض أمامه، تطلعت بدورها، حفرة منفرة الشكل يتوسطها جسم معدني غريب. الله الحافظ. لا حاجة بها لتوجيه خط سيره، مال جانبا، مبتعدا عن محيط الحفرة. على مهلك. قالت له، كانت مأخوذة برؤية الشط، ترامیه مد النظر، وهذه الحركة الهادئة لسطح مياهه، لو اشتدت الريح لصار الوضع غيره، ترى البروز النسبي لبستان الحلبي داخل الشط، تتذكر زمنا يمتّ لأيام شبابها، هذا البروز يسمونه مسنّاية الحلبي، حيث يوجد غاطس عميق يكفي لرسو الأبوام القادمة من الكويت في موسم جني التمور، تشمم أنفها رائحة عطرية، حددت بصرها، نباتات الجوري تزاحم بعضها تشغل جانبا من الساحل بانحداره صوب الماء.



10

الرياح وهي تمر ملامسةً وجه الشط ترقشه، حاذرت انزلاق قدميها بالأرض الطينية، استعانت بمنجلها، اختارت أربع نبتات ورد جوري نمت في الجانب المغمور بالماء، بادرت اقتطعت أغصانها الطويلة، حرصت على أن تقتلع كل واحدة منها باحتواء طينتها هادفة لأن تحتفظ بأكبر قدر من جذورها. إذا حالف الحظ هذه النبتات أزهرت خلال أسابيع. مع تداعيات أفكارها داهمها شعور بالأسى. لكنها معرّضة للموت عطشاً إن لم تجد من يتولاها بالسقاية المنتظمة عندما يُصار إلى إبعادي عن هنا. انشغلت لدقيقة، ثبّتت خلالها نبتاتها فوق رحل قدم خير، تنبهت لنفسها وهي تتحدث بصوت مسموع. يجب أن أبقى. لم تتجّشم عناء السفر ومواجهة مخاطر الطريق من النجف إلى هنا لكي تسلّم بترحيلها، فكرت برهة. ما العمل يا بو قاسم. تخاطبه كما لو أنه أمامها يسمعها. استطردت مهيبة به. أنت لن تخذلني. سكتت وهلة تقدمت إثرها بما يشبه الاقتراح. وجّهني لما أفعله. قطع عليها توالي أفكارها سماعها زبيط سرب طيور أوز تجتاز



جانب السماء، رفعت رأسها، هذه الطيور تمتلك الفضاء، راحت عيناها نحو نخلة كانت سامقة قبل أن تتعرض لإصابة مباشرة في رقبتها من دانة عابرة أدّت لانقصافها جانبا مال رأسها بثقل سعفها ظل معلقا جف في مكانه عاليا، منظر مؤلم بقدر ما هو مُخز. دانات المدافع العابرة تمتلك الفضاء أيضا.

في طريق عودتها التقاها نائب ضابط صادق يرافقه أحد جنوده، أبدى احتفاءً ينازعه فضول بنبتات الجوري. أين ستزرعينها. لم يمهلها فرصة الرد عاد سأل مستغربا. ما جدوى زراعتها إن لم يتعهدها شخص بالرعاية. أحالها سؤاله الأخيرإلى قرار إبعادها بعد أيام، واتتها إجابتها. فيك البركة. تملّكه شعور بالاعتداد. تحت أمرك. سبقهم قدم خير نحو باب بيت محمود عباس. أبدى الثاني استعداده. إن شئت تولّيت شتلاتك. ابتسمت له. ما اسمك. جاسم. قالت. حيا اللّه جاسم.. إثر الانتهاء من زراعة نبتات الجوري أبدت أم قاسم رجاءها. احتاج مساعدتكما. في بالها أن تستعين بهما لترميم خراب مترتّب عن دانة أصابت ساتر المسجد. اقترابها من الشريعة الكائنة وراء بيتها انشرح صدرها، رأت نهر الچومة طافحا بالماء، سبقها قدم خير انحنى مادا رقبته، لا وجه للمقارنة بين احتفائه الراهن وامتعاضه فجر يوم وصولهما. ما زالت أرض حوشها رطبة إثر مطر البارحة، أزاحت الطربال عن حفرة القبر، جلست بالمواجهة. أنهيت زراعة حوض بيت محمود عباس بالجوري. قالتها منحى إخبار، تابعت. لم أتذكّر أخصك بشتلة أزرعها عند رأسك.



لفتت اهتمامها حركة حمامة فاختة فوق النخلة، ابتسمت راضية، عادت لمخاطبة زوجها. أعدك آتيك بشتلتين. أضافت مشترطة. إذا عرّفتني بكيفية تمديد إقامتي هنا. سكتت وهلة. الجنود هنا يعيشون حالة يسمونها هدنة، يقولون تنتهي يوم عيد نوروز، لا أعرف شكل الحياة بعد ذلك، رأيت دانات مدافع، لا أعرف نوع الخوف الذي سينتابني إذا بقيت وسط القصف، لا أظنني أجزع فأترك المكان. شفّ صوتها بمحبتها. لو أجبروني على المغادرة أخذتك معي.

هداها وعيها أن تُخبر ملازم عبدالكريم. رأيت حفرة تحوي واحدة من داناتهم. سألها إن كانت منفجرة. لا أعرف. رافقها نائب ضابط صادق وعريف فوزي. عرّف به الأول. خبير متفجرات. قادتهما للمكان المعني، بعد تفحصه الحذر للمعدن أفاد عريف فوزي. يلزمنا تفجيرها في موقعها. لم تتجرأ تسأل كيف، قال لها نائب ضابط صادق. أمر جيد إنك لم تحاولي رفع الدانة من مكانها. لم تحر جوابا، مُذ وصلتْ لهنا وهي مسؤولة أن تستوعب ما يدور. عاد الثلاثة أدراجهم، أخبرها نائب ضابط صادق. سيتولى عريف فوزي أمر تفجير الدانة في وقت لاحق. بعد انصراف المعني لشأنه خبّرها مُداريا ألما. خبير المتفجرات السابق استشهد أثناء أداء واجبه. ما الذي تفهمه، سمعته يواصل. تطايرت أشلاؤه مسافة أمتار من موقع الانفجار. سارّرت نفسها. هناك موت لا يخطر على البال. كانا يتابعان مشيهما، لفت انتباهها. ذلك هو قدم خير ينتظر وصولك. رأت حمارها يقف عند مدخل زقاق يقود لساحة خلفية عائدة لقصر



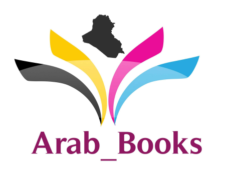
سيد زيد النقيب، هز رأسه قبل أن يختفي في الزقاق، استنتجت. اجتذبه شيء ما. حثّت خطوها، سايرها مرافقها، بلغا أوّل الزقاق، رأت قدم خير يقضم بعض العشب وسط مشهد مقبرة وراء خيم الجنود المقامة هناك، انتظام الشواهد بأربعة صفوف متوازية، غلبها ذهولها. على أيامنا لم تكن هذه القبور موجودة هنا. تابعت مؤنّبة. هذا مكان لا يصلح مقبرة. أراد نائب ضابط صادق الرد، لكنها أكملت متسائلة. هل تدفنون موتاكم وسط خيمكم. ليس هكذا. أجابها سريعاً. وضّح. القوانين العسكرية تقضي أن يتولى الجيش إيصال جثامين الشهداء لذويهم. لم يزايلها ذهولها بعد، وضّح. رئيس عرفاء عبدالباري هو صاحب الفكرة، عندما استشهد واحد منّا قبل أكثر من سنتين، قام بدفن قميص عائد لذاك الشهيد، وضع له شاهداً يحمل اسمه حتى يبقى حاضراً بيننا. أحست أم قاسم طعم مرارة في فمها. قبل دقائق خبّرها محدثها عن أشلاء متناثرة لأحدهم.

كانا جالسين متقابلين داخل زورق يتهادى بهما فوق مياه شط العرب، الوقت يسبق غروب الشمس، الشط مزدحم بزوارق تفوق الحصر، الناس حالة احتفال جماعي يتسم بخروج على المألوف، عزف موسيقى، غناء، رقص، صيحات فرح تتعالى من كل جانب، تناهى لوعيها إنه يوم الكسلة..عيد نوروز، انتابتها حيرتها لمّا رسخ في وعيها إن عيد نوروز لم يحلّ بعد، لفت بو قاسم اهتمامها إليه. ما بك. هدفت لأن تشركه حيرتها. هناك غلط. ضحك بمنحى



المفارقة. كثير هو الغلط. لم تجد ما تعقّب به، تظنها عاشت مثل هذا المشهد من قبل، كان زورقهما أصغر والمكان نهر سيد رجب طافحا بماء المد ولا وجود لآخرين في الجوار. فجأة تعالت أصوات الناس من حولهما بأعلى، لم تميّز صيحات الفرح من صرخات الفزع، أحست بالبرودة تسري في جسدها، خوف من مجهول داهم، قالت له. نذهب للبيت. صمت لزمن بدا ثقيلا. سنفعل. ألحّت. متى. عانت صمته ثانية. في حينه. ناورها وعيها أغفل الحشد بالصراخ الصادر عنه، بدأ يلهث وراء نمط تتابع مشاهد أو ذكريات تمتّ لزمن بدا منقطعا على ذاته، سد ترابي هائل الحجم، خيم عسكرية صغيرة تبدو مدفونة داخل الأرض، أجسام معدنية متشظية الحواف، نخل برؤوس جافة متهدلة، نفذ بو قاسم داخل أفكارها وضّح. لأنهم يعيشون وسط قبورهم. قدح ذهنا، قالت. قبورهم خالية من جثامينهم. أطلق زفرة أسى. أمر مؤلم. وجدت ردها. لن أفرط بجثمانك ما حييت. ابتسم بمحبة. سيكون لك ذلك. ساد صمت كلي، تبعه تلاش سريع لمفردات المشهد، كانت وحدها وسط أرض فضاء مترامية مغطاة بشواهد قبور متوازية ممتدة لما وراء خط الأفق، انتابها فزعها. لماذا أنا. رغم معاناتها ضياعها تبادر لها أن تنهر نفسها. يجب أن أكف..

انتفضت جالسة، ظلمة الليل، الغرفة والسرير. اللهم اجعله خيرا. سكنت برهة، تأملت داخلها، لديها كمٌ من الحنين الشفيف للغائب الحاضر، انتابها شعور بالتقصير، فاتها اغتنام فرصتها سؤاله



مشورته. كيف تقنع عسكرهم بالإبقاء عليها، لكنها راجعت سياق حلمها، بو قاسم بثّها رسالته بهذا الخصوص عندما قال كلماته. سيكون لك ذلك. التفتت للباب الموارب، أنوار الفجر آخذة تنتشر خارجا، لن تعاود النوم، نشط خيالها وراء تفاصيل عائدة لحلمها، لماذا وقع اختيار بو قاسم على يوم الكسلة، لم يسبق أن ركبا زورقا في مناسبة كهذه، تتذكر عنه أنه صحبها لشارع الكورنيش بمناسبة يوم نوروز قبل حملها بابنهما البكر قاسم، زحمة الناس على الشاطئ وزحمة الشط بالزوارق من جسر المقام حتى جسر الخورة، الغناء والرقص والأجواء الاحتفالية، كانت أيام الحكم الملكي. مع توالي سنوات أعقبت ثورة تموز صار يوم نوروز مجرّد تنبيه لحلول فصل الربيع. يا بو قاسم متى نعيش حياة خالية من الخوف. صمتت وهلة. بصرف النظر عن حتمية مغادرتها يلزمها أن تُحسن استغلال أيامها القليلة المتبقية. تعال. نشط قدم خير ملاحقاً خطواتها، عنّ لها أن تتفقّد منزل جواد الدليشي جار بيت محمود عباس. صدف لهذين الجارين أن تزوج كل منهما أخت الثاني، صار واحدهما خالا لأبناء الآخر، أزالا جانبا من السور الفاصل بين حوشي منزليهما، دخلت بيت محمود عباس يتبعها قدم خير، تفحصت شتلات الجوري، الذبول لم ينل أيا من أوراقها الخضراء، رأت قدم خير يمد بوزه بحذر لفرع إحدى الشتلات. لا. انصاع مبعدا رأسه، سبقها لحوش منزل جواد الدليشي حيث توجد سدرة عملاقة أيضا عُرف عنها أسبقية نضج ثمارها الملاسية القابلة لأن تؤكل ببذورها.



أرض الحوش مغطاة بطبقة كثيفة من ورق السدر الجاف، هذا الورق يمتاز برائحة عطرية، دأبت ربّة البيت أم هادي على جمعه ووضعه في أكياس ورقية متجانسة الحجم رهن طلب العديد من نساء السبيليات لغرض الاغتسال. سارع قدم خير دس بوزه خلل الأوراق محاولا العثور على ثمار النبق، رفعت عينيها إلى أعلى، آلمتها رؤيتها الأغصان الجافة عدا الأغصان الأقرب للجذع، الحوض والحنفية، اعتادت سماع الصفير يسبق تدفق الماء، رأت باب المطبخ موارباً وفي الجوار منه باب غرفة الچيل. ليس الآن. آثرت رؤية الحوش الخلفي المتصل ببستان مترام يمتد حتى ضفة نهر سيد رجب. انتابها امتعاضها، رؤيتها تشويه جدار السور الخلفي جراء إصابته بدانتين في موقعين متقاربين. يضم الحوش الخلفي نخلتين برحيتين سامقتين إضافة لأغصان متشابكة باتت يابسة متقصفة عائدة لثلاث شجرات برتقال ونبتات ورد جهنمي. العوض بالنخل. التفتت لقدم خير. تعال. نشط من ورائها، تجاوزت بوابة عريضة، صارت بمواجهة الانفتاح المترامي للبستان، غافلها فمها انفرج بابتسامة رضا، رأت الجداول طافحة بالماء. اسم البستان أم البرحي لاحتوائه على خمسين نخلة برحية بارتفاعات موحدة، خمسة أمتار. ما قبل ثورة تموز كان هذا البستان ملكا لآل النقيب شأن غالبية حيازات المنطقة، لكن ظروف ما بعد الثورة وهجرة العديدين من الورثة.. تمّ عرض البستان للبيع، دفع جواد الدليشي ثمنه المقرر، قال في حينه إن جده الثاني لأبيه هو المالك الأول لأم البرحي. تعرف أم قاسم عن زحمة أشجار غرب عملاقة مصطفة



عند ضفة نهر سيد رجب، أمنيتها أن لا ترى الغرب ميتاً، تدري عن هذه الشجرة حاجتها الدائمة للماء، حثت خطوها، الغرب نوع من صفصاف سريع العطب سهل الانقصاف، رأت أكوام الفروع مكدسة فوق بعضها حول ما تبقى من جذوع، نهر سيد رجب طفح بالماء بعد فوات أوان أشجار الغرب. تعال. هل بلغه حزنها، ماشاها قدم خير مطأطئ الرأس.



11

قال ملازم عبدالكريم بصوت أليف. رغم كونك لم تبق بيننا سوى عشرة أيام إلّا أننا سنفتقدك حتما. لم تكاشفه أم قاسم بما جال في ذهنها. ليتكم تنسون وجودي هنا. تابع. كوني مستعدة للمغادرة في مثل هذه الساعة غداً. حوار من جانب واحد دار ضحى يوم 21 آذار. من باب المساعدة اتفقت مع سائق شاحنة التموين أن يقلّكما أنت وحمارك حتى حدود المحافظة. حزنها الذي استبد بها وقتها منعها أن تبدي رداً، اكتفت أمّنت بإيماءة رأسها، هل عرف سبب قنوطها، ختم بما يعني التسليم القهري. أمورنا خارج الإرادة. عصر يومها ذاته زارها نائب ضابط صادق وجندي جاسم. هدف الأول لطمأنتها. سأتولى سقاية شتلات الجوري. أجابت ممتنة. أنت ابن أصل. رجاها جندي جاسم. دعواتك لنا. ابتسمت حزينة. عسى الله ينهي هذه الحرب. بعد مغادرتهما توجهت لحفرة القبر. كن مستعدا، يبدو أننا سنغادر غدا. استدركت. إلا إذا كان لديك رأي ثان. خنست برهة كأنها تنتظر سماع استجابة ما، قالت.



أعرفك غير راغب بالمغادرة، أنا كذلك، ملازم عبدالكريم يقول أمورهم خارج إرادتهم، لم أفهم كيف. عادت خنست برهة أطول، ختمت متسائلة. ما رأيك. مرّ الوقت مشحونا بقلق لم تعهده من قبل. حيرة مقرونة بعجز عن التفكير بشكل منطقي، لو حملوها مع قدم خير ورفات زوجها حتى حدود البصرة إلى أين تتوجه، ليست قادرة على تقبّل فكرة عودتها من حيث أتت، ليست مؤهّلة لمعاناة إحساسها الأول بالعطالة حتى وإن كانت محاطة بأولادها وأحفادها. ماذا نفعل. وجهت سؤالها لقدم خير، أصدر الأخير شخيرا خافتا، كانت الشمس غربت لتوها. أظنك عرفت بأنها ليلتنا الأخيرة هنا..

طفقت تتفقّد موجودات بيتها كما لو أنها تراها للمرة الأولى، إحساس بالمحاصرة يضغط عليها أنفاسها، مجانيّة مجيئها شأن مغادرتها، كما لو أن حياتها مرتهنة لقرارات صادرة عن.. فاجأها تساؤلها منبعثا من داخلها. كيف يكون رد فعل ملازم عبدالكريم وبقية العسكر لو اختفيت، غبت أياما ثم عدت. لعلهم يبعِدونها قسرا، أعملت ذهنها. أنا مسؤولة عني. اتخذت قرارها. أغادر قبل شروق شمس يوم غد. اختفاؤها هكذا خير لها من انصياعها لأوامرهم، عدا كونها لا تضمن رد فعلِ قدم خير إذا أُجبر على ارتقاء شاحنتهم، توجّهت للحظيرة، قالت مُخبّرة. نرحل فجرا. لم تسمع استجابة، ما زال قانطاً أو حائراً، مر الوقت متباطئا مشحونا بالقلق والتوقّع، السماء ليلتها باهتة رغم خلوها من الغيوم، أوت لفراشها حوالي الساعة الحادية عشرة، تحتاج بضع ساعات راحة استعدادا



للطريق، أغفت أو كادت، لتصحو على نهيق قدم خير، حدسته يقف وراء الباب، ساورها قلقها. ما ذا حلّ به. همّت بمغادرة فراشها، أفزعها سماعها انفجارات مدوية متلاحقة. حربهم على ما يبدو.. لم تُكمل تساؤلها، ضج الهواء بصفير حاد قبل أن تهتز جدران غرفتها جراء سقوط قذيفة مدفع في الجوار، صرخت مفزوعة. قدم خير. ركضت للباب، لم تره هناك، رأت سحابة غبار ترتفع من حفرة قريبة لقبر بو قاسم، رفعت صوتها جزعة. قدم خير. وصلتها حمحمته من الحظيرة، هرعت له، كان محتميا عند الزاوية الأبعد، اقتربت منه. لا بأس عليك. تبادر لذهنها. مرت أيام هدنتهم، ها هم يواصلون حربهم. أصغت باتجاه الشط، صوت إطلاق مدافع يتخلله صفير قذائف قادمة من جهة بعيدة، هاجسها بالداهم، ليتها تفهم سببا لما يدور، بعد دقائق سقطت قذيفة أخرى في الزقاق أمام باب منزلها، أعقبتها ثالثة على منزل عبود الأطرش، كما لو أنهم بصدد استهداف هذا المكان تحديداً، توالي القصف والقصف المضاد، هم لا يمهلون الواحد لحظة يلتقط فيها أنفاسه، رسخ في وجدانها أن لا مكان يوفر لها الأمان سوى مقام سيد رجب، أهابت بقدم خير. نذهب.

مُذ وعت حياتها لم يصادفها مثل هذا، لا بد أن إشعال الحروب عامة فعل بشري أخرق، خيّل لها وهي تحث خطوها مع قدم خير واضعة يدها على رقبته هادفة لتثبيته أن مسافة طريق المقام تضاعفت مرات وأن الهواء الذي تأخذه لصدرها صار عدوانيا. بلوغها المكان، اختارت الاحتماء بظهر المبنى، تهاوت جالسة



مستندة للجدار، وقف قدم خير منكسا رأسه مسافة خطوة منها، خفّت حدّة القصف المتبادل، توقفت، هل يحق لها أن تأمل.. دام التوقف بضع دقائق تجدد بعدها بوتيرة متسارعة، إحدى قذائفهم العابرة أصابت غصنا أعلى السدرة، تقصّف الغصن، تهاوى غير بعيد عن قدم خير، أصدر الأخير حمحمة احتجاج. خطاك السوء. لم يتوقف قصفهم نهائيا إلا مع انتشار أنوار الفجر. للسكون حضوره الثقيل، أنت بأذنين تترصدان احتمالا لصفير تتمناه أن يكون عابرا في حين بقي الهواء مشبعا برائحة الشياط، انتظرت انتشار أنوار الفجر أكثر، توجهت للبركة، ما زالت الأخيرة طافحة بالماء، بحثت بعينيها عن الضفادع، رأت بعضها يتشبث بالجدار الإسمنتي عند خط الماء، خنست صوبها برهة، لا نأمة، ضجيج الحرب كما يبدو يُخرس أصوات الضفادع، انفرج صدرها قليلا رأت طائر هدهد على مسافة أمتار، حركته متواترة سريعة لدرجة التطيّر، تخاله جائعاً، كيف تتسنى له قدرة العثور على ما يسد به رمقه من غير أن يهدأ في مكانه ولو للحظة، اليوم 22 مارس.. دلالة الربيع، لكن اشراقة الشمس جاءت صفراء باهتة تبعث اليأس، طرأ تساؤلها لذهنها. العسكر الذين يتمركزون عند ساحل الشط، القصف والآثار المترتبة..

أصدر قدم خير شخيرا خافتا، أدار رأسه ناحية الفتحة المؤدية للزقاق، تطلعت بالاتجاه، رأت نائب ضابط صادق وجندي جاسم يقتربان، هتف الأول. الحمد لله على السلامة. قال الثاني. بحثنا عنكِ في أماكن عدّة.. قاطعته مُبدية قلقها. عساكم لم.. خانها



تعبيرها، سارع الأول طمأنها. لا ضحايا ولا إصابات. استجابت. الحمد لله. نوّهت. كانت حربا شديدة. عارضها جندي جاسم مبتسما. الحرب الحقيقية حالة مواجهة واشتباك، ما مرّ عبارة عن قصف متبادل معتاد. لو تساءلت أين الاعتياد من موت قيد خطوة، تذكّرت أمرا يترصّدها الآن، تشرّب أساها صوتها. هل وصلت الشاحنة التي تأخذني. قال جندي جاسم. لم يرسلنا ملازم عبدالكريم لهذا الغرض. تابع. أراد الاطمئنان عليك. ابن حلال. انبرى نائب ضابط صادق. شاحنة التموين لم تصل بعد. سكت برهة. لا أحد يعرف حصيلة ضحايانا. أخذت حيرتها وجهها. قلت لا ضحايا ولا إصابات. أجابها. قصفهم هذه المرة شمل جبهاتنا كلها.. تعرّض مركز قيادة فرقتنا شمال البصرة لقصف عنيف قبل أن تنقطع خطوط اتصالنا بهم. تبادر لها، فات أوان تنفيذها قرارها بالمغادرة فجرا، حرصت على مداراة إحباطها. متى تصل الشاحنة. رد نائب ضابط صادق. نتيجة لانقطاع الاتصالات.. لا أحد يعرف. ترددت قليلاً. ربما لا تصل اليوم. انبرى جندي جاسم. قبل أشهر من الآن تسبب القصف بانقطاع الاتصالات، تأخر التموين لأربعة أيام. شارك نائب ضابط صادق. مرة أولى تتعرّض وحداتنا لمثل هذا الزخم الكثيف جداً من القصف. ودّت لو تقول. أنا وقدم خير عانينا فزعا شديدا. ودّت لو تضيف. لولا مقام سيد رجب ما عرفنا الأمان. قالت. واحدة من داناتهم سقطت وسط حوش بيتي مبعدة خطوات من بو قاسم. أضافت. لم أتفقّد بيت جارنا عبود الأطرش بعدما تعرض لواحدة أيضا. سكتت ثانيتين تساءلت



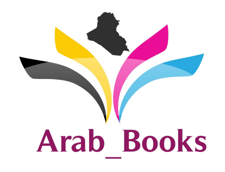
حائرة. ماذا عن حال البيوت الباقية. لم يخف جندي جاسم دهشته. هل تنوين ترميمٍ البيوت التي تعرضت.. قاطعته. البركة فيك. لعله عانى إحساساً بالإحراج. تحت أمرك. تساءل الآخر. ما جدوى الترميم مع تواصل القصف. أطلقت زفرة ألم. أنتم تردون على القصف بالقصف. أجابها أشبه بمن يدفع تهمة. هذه طبيعة حرب الاستنزاف. تملكه ذهوله إزاء استجابتها العفوية. لست أفهم ما الذي تستنزفونه. بدرت عنه ضحكة خافتة. أسئلتك خطيرة.

بدأت بتفقد بيت عبود الأطرش، دانتهم سقطت أمام باب المنجرة، أحدثت حفرة يتجاوز قطرها المتر. تعال يا قدم خير. مهمة نقل المعدن المتشظي الحواف إلى حيث حفرة المخلفات الكائنة وراء منزلها، الفأس وحدها لا تكفي لتسوية الأرض، استعانت بمسحاة، قبل أن يحل دور بيتها، إثر انتهائها من محو آثار مترتبة قدر استطاعتها استعارت مقعداً خشبياً واطئا من منجرة عبود الأطرش، وضعته بمواجهة حفرة القبر، جلست، قرأت المعوذات عن ظهر قلب، مهّدت لحديثها. واجهنا الجحيم لمّا شرعوا يقصفوننا، استغرب كيف استطاع العسكر في مكانهم عند الشط أن يواجهوا ذلك، تسمعهم يقولون لا ضحايا، وهم يقيمون مقبرة يدفنون فيها آثار موتاهم، طلبت مشورتك بخصوص بقائي هنا، الآن وقد واجهت الموت.. لم يخطر ببالي أن قدم خير يفهم الموت. استطردت. أنا كما تعرفني أكره مغادرة السبيليات، أتمنى أن نستطيع البقاء في بيتنا لحين عودة الأولاد والأحفاد، عسى أن لا يكون ذلك بعيداً. غافلتها زفرة أليمة،



رددت مستسلمة. لكني، بعدما واجهت الموت.. لا أدري. مسألة ترحيلها عن هنا مرهونة بوصول شاحنة تموينهم، بعد التعقيد الذي صادف الوضع صار وصول الأخيرة مرهونا بظروف مجهولة لهم. وعدت نفسها أمس بتفحص محتويات مطبخ وغرفة چيل منزل جواد الدليشي. تعال. لحق بها قدم خير، حوض السدرة الملاسية ما زال يحتفظ ببقايا ماء من سقاية أمس، رفعت رأسها لفروع السدرة. مع مواصلة سقيك تستطيعين استعادة عافيتك. عالجت باب المطبخ، هذا المكان فاره أكثر مقارنة بالثاني في البيت المجاور، مزايا الغنى تبدو واضحة، الأوعية الخزفية العملاقة ومثيلاتها من المعدن، انتظام الجدران بدواليب ألمنيوم، لو تعلّق الأمر بأم قاسم وحدها، مخزون هذا المطبخ يكفيها سنوات، فرحت لوجود كمية من حبوب لوبياء لم تُصبها السوسة، تراودها فكرتها، جداول بستان الدليشية أو أم البرحي طافحة بالماء، يكفيها دفن بضع حبات لوبياء على مسافات متقاربة في الأرض الطينية عند خط الماء، يحدوها أملها. أرى براعم خضراء يانعة خلال أسبوع. استنبات اللوبياء لا يستلزم رعاية متواصلة، خَفَتَ حماسها من فورها، ليس بمقدورها أن تضمن بقاءها حيث هي لأسبوع قادم.

غادرت المطبخ متوجهة لغرفة الچيل، وقفت هناك مشدوهة باكتشافها، خزين المواد الغذائية الأساسية بما فيه زيت الطبخ وأنواع عديدة من البقول فاق توقعاتها، ساورها أساها، هذا المخزون الغذائي الكبير معرض للتلف إن لم يعد أصحاب البيت. أرادت تجاوز



شعورها بالأسى، تفقّدت غرف البيت، بعد انهائها جولتها وجدت نفسها تواجه باب المطبخ ثانية، حضرها تساؤلها، لو أنها أقدمت على فعل مغاير. تجاوزت الساعة الثانية ظهرا عندما اقتربت من خيمة ملازم عبدالكريم. ما هذا. أبدى دهشته وهو يتلقى منها وعاءً مغطى. أجابته. وجبة غداء. لا بد أن تكون طبخة بصراوية. أومأت برأسها موافقة، قالت. لأن سيارة تموينكم لم تصلكم اليوم. أشارت للوعاء، استطردت. هو من غير غموس. ما المقصود بالغموس. طبخة من غير لحم أو سمك أو دجاج. رفع غطاء الوعاء، صافحت أنفه رائحة الطعام. يبدو شهيا. مد يده، أخذ لقمة، دورها في فمه. هل جئت بهذا الرز من النجف. ابتسمت ممتنّة لمجهول. كل الذي أحتاجه للطبخ موجود في بيوتنا. استطردت. توجد كميات رز وطحين وخلافهما تكفيكم لأشهر. ابتسم ممتنا. لن نحتاج ذلك. يخبرها قلبها إن ملازم عبدالكريم إنسان طيّب أحسن حتى الآن معاملتها، تودّ لو تطلب منه تمديد فترة بقائها هنا لولا احتمال رفضه، قد يقول لها أنت امرأة استغلالية، تمعن تفكيرها، يستطيع واحدنا أن يحدس ردود أفعال ناس يعرفهم لكن الحال مع العسكر.. ليس من يجزم بما يصدر عنهم..



12

قبل مغيب الشمس بقليل سمعت أم قاسم صفير قذيفة عابرة أعقبها مباشرة صوت اطلاق قذيفة مدفع من ناحية موقع العسكر، تواتر إثرها إطلاق القذائف بين الجانبين زهاء نصف ساعة ليتوقّف حتى مساء اليوم التالي. ما الحكمة من هذا القصف. تساءلتها أم قاسم، أفادها. نائب ضابط صادق. يحدث إطلاق نار أو اشتباك في مكان من الجبهة فتشتعل المواقع الأخرى. لماذا هذا الاشتعال. ابتسم بدلالة العتب. لو كنتِ في السلك العسكري لعرّضت نفسك لمساءلة انضباطية. بدرت عنها ضحكة خافتة. معك حق. تحولت ابتسامة نائب ضابط صادق لضحكة ودودة. أنت امرأة حكيمة. أرادت أن تعترض لكنه تابع. كلماتك تحمل معاني عميقة. لم تجد ما ترد به. رحيلك عنّا يترك فراغاً. لم تجد ما ترد به، اكتفت أطلقت زفرة أسى، سادت لحظات صمت أنهاها مُقرّا. لا خبر بخصوص شاحنة التموين حتى الآن. قالت. تصلكم غدا. تحرّى دقّته. على الأغلب لا. تطلعت فيه، استطرد. ما زلنا عاجزين عن الاتصال



بقيادتنا. تجدد تبادل القصف قبل منتصف الليل بقليل، دام لدقائق ثم توقف. لدى تفقّدها منزل محمود عباس ضحى اليوم التالي تفاجأت بوجود جندي جاسم هناك. لأني زرعت شتلات الجوري أتولّى سقايتها. فيك البركة. اغتنم الفرصة خبّر. شاحنة التموين لن تأتي اليوم. لم تُدار إحساسها بالشك. هل أنت متأكد. أجابها بإحالة محيرة. لم نستعد اتصالاتنا بالقيادة بعد.

مرّ يوم ثالث، تلاه رابع، جرى تبادل اطلاق قذائف في أوقات متفاوتة، ضحى اليوم الخامس التقاها نائب ضابط صادق. جئت من طرف ملازم عبدالكريم.. عرف منكِ بوجود مخزون غذاء. هذا صحيح. أردفت. تعال. في الطريق لبيت جواد الدليشي تساءلت. يبدو إن شاحنة التموين لن تصل اليوم. لم يجبها على سؤالها بشكل مباشر. وفقنا للاتصال بالقيادة اليوم، طلبوا منا أن نتدبّر شؤوننا بجهدنا الذاتي. آثرت أن لا تحرجه بمزيد من أسئلة تتصل بالجهد العسكري، لدى مواجهتها باب حجرة الچيل في المنزل إياه، سألته. ما الذي تحتاجونه. المتوفر. انفرجت أساريره وهو يخطو داخلاً. أمر جيد. رغم انشغاله باختيار ما يحتاجه أفضى. لم تصادفنا فترة انقطاع تموين دامت خمسة أيام. غافلته زفرته. واصل. ربما يطول الانقطاع أكثر. شاءت أم قاسم أن تكتفي بالإصغاء. أخبار شبه مؤكدة، القصف الإيراني الشديد الذي أعقب هدنة نوروز سبب خسائر مؤثرة في قيادة الفرقة، عدا عن ضرب الجسور. رددت أم قاسم مشاركة. كان الله بالعون. بذل الاثنان جهدهما داخل



حجرة الچيل، قاما بتأمين كمية رز، دقيق قمح، سكر، زيت طبخ، العدس. قالت أم قاسم. ينقصنا الغموس. بدا عليه كمن لم يفهم، وضّحت. لحم، دجاج، سمك. عقّب مهوناً. جنودنا لا يحلمون بكل هذا الترف. كرسيها الخشبي الصغير، جلوسها أمام فوهة القبر. يا بو قاسم. ناشدته بصوت تتشربه الحيرة. مع انقضاء اليومٍ نكون قد أكملنا أسبوعين منذ القصف. سحبت لصدرها شهيقاً عميقاً احتفظت به لثوان. الله هو الحافظ، جنودنا يقولون حتى الآن لا ضحايا، هذه الحرب لا تُعرف نهايتها. سمعت صوت حمامة فاختة أعلى الحلاوية، رفعت رأسها، امتلاء نهر سيد رجب والآخر الچومة مع آلاف جداول متفرّعة عنهما بدأ يستقطب بعض الطيور، بالأمس شاهدت زرازير وسط فروع سدرة محمود عباس، تتمنى رؤية المزيد، عقدت حاجبيها بدلالة الامتعاض، أمس أيضا رصدت انخفاضا محسوسا لمستوى الماء داخل بستان الدليشية، بعد أسابيع يحل الجفاف الكلّي ثانية، حدّقت في عمق القبر. ما العمل.

لا تستطيع تحديد الوقت الذي مرّ عليها وهي تجلس القرفصاء أمام طستها الكبير الممتلئ بالسمك مواصلة مهمة التنظيف استعانة بسكين صغيرة، التعب ينشب بساعديها، رددت مع نفسها متذمرة. آخرتها معك صالح. لم يكف ولدها، بين فينة وأخرى، يدخل حاملا كميات إضافية من سمك متفاوت الأنواع والأحجام، يقول لها مستبشراً. الخير الكثير. تفلت زفرة احتجاج. لكني تعبت. يطلق ضحكته. لدينا فائض سمك في نهر سيد رجب. تتذكره



عندما حمل شباكه قبل منتصف الليل. لزوم اغتنام المد لما يبلغ أعلاه. هو وحساباته. أين أبوك، لماذا لم يعد للآن. هو وأخي قاسم يبذلان جهدهما يجمعان السمك. شرد ذهنها. ليس من عادة بو قاسم أن ينشغل بصيد السمك. لعلها غفلت لحظة، رأت بو قاسم يجلس القرفصاء قبالتها يواصل تقطيع السمك مستعينا بمنجل، دهشتها من احتفائها. أول مرة تشاركني عمل المنزل. ابتسم بمحبة. عدد ضيوفنا يقارب أربعين. غفلت لحظة ثانية، حضر نائب ضابط صادق رأته جالسا أمامها ينشغل بوضع قطع السمك داخل وعاء للطبخ، صوته لا يخفي دهشته. لا يمكن لجنودنا أن يحلموا بكل هذا الترف. كفّ عن العمل، رفع رأسه يصغي للبعيد. ما بك. تلاشى المشهد بمكوناته كافة مُخلفا رائحة سمك طازج تهوم عند أرنبة أنفها، قبل أن تعتدل. جالسة في سريرها. اللهم اجعله خيراً. سكنت في الظلام، تناهى لسمعها صدى قصف مدفعي آت من البعيد، حدست بوجود حركة في الحوش. قدم خير. نهضت للباب، رأت حمارها يقف أمامها. أنت لم تعتد على الحرب. مدت يدها لامست جبهته، أرسلت بصرها ناحية حفرة القبر. لم أفهم القصد. بقي ذهنها مشغولا بما ورد في سياق حلمها، هذا السمك، تتذكر ما قِيل في تفسير الأحلام. السمك كثير يعني الخير. استبعدت تفسيرها. لا خير وسط اشتعال الحرب. حيّرتها مسألة ظهور ابنها صالح مسبقاً لظهور أبيه. هل هي غوايته بصيد السمك. تكاد تسمع صوته. أريد مچبوس سمك مع دقوس صبار. تستحضر بو قاسم وسط الحلم، مساهمته بتقطيع السمك إضافة لحديثه بخصوص ضيوف أربعين،



حيرتها إزاء تأويل مفردات منامها، زاد تعقيدها لدى ظهور نائب ضابط صادق. لا يمكن لجنودنا أن يحلموا.. هناك ارتباط بالإحالة، تلزمها رؤية مد الشط. مع انتصاف النهار قصدت موقع العسكر، رحّب بها ملازم عبدالكريم. نشكر لك تموينا بالطعام. الشكر لأهل السبيليات. ابتسم. أنت البركة. ترددت برهة. أشارت للسد القريب. أحتاج لأن أبقى هناك بعض الوقت. لماذا. ترددت ثانية. زارني بو قاسم البارحة.. ابتسم. عساه لم يكن حاملا فأسه. نفت بحركة من رأسها، وضّحت. أراد أن يقول شيئا بخصوص سمك نهر سيد رجب. لم يجد ملازم عبدالكريم ما يقوله.

وصلت السد، وقفت بمواجهة الشط، حالة المد تكاد تصل أقصاها، نتف الأعشاب الطافية فوق سطحه تتباطأ بحركتها تجاه الشمال، حركة الموج خفيفة لا تكاد تحس، لامست وجهها رياح طرية، في سنوات ما قبل.. يستطيع الواحد أن يتابع بعينيه عشرات زوارق صيد سمك الصبور، شباكهم غاطسة لا يبان منها غير طوافات كرب النخيل، يترصدون لحظة انحسار المد لاصطياد أكبر عدد من الصبور المندفع مع انحدار الماء جنوبا. الشط الآن لا زوارق ولا بواخر ولا.. استدارت لتواجه نهر سيد رجب ماؤه راكد، تتطلع للأبعد، ترى حركة تموّج بسيطة دالة على كينونة ما، لعلها سمكة أو أكثر، أبقت عينيها على هناك لثوان، هدأ سطح الماء، استدارت للشط، العشب الطافي فوق سطحه يثبت مكانه، الجزر الآن. التفتت للنهر، رصدت تواتر تموّجات سطح مائه في الجوار من السد، أشعة



شمس الظهيرة تخترق سطح الماء تكشف جانبا من عمق النهر، تسارع وجيب قلبها، اكتشفت وجود عشرات الأسماك بأحجام وأنواع مختلفة، كانت الأسماك تبحث عن منفذ يأخذها للشط، كما استعادة ذاكرة طريق قدمت منه، تمعن نظرها، تتابع حركة الأسماك أمامها، محتجزة هنا منذ أسابيع، تقفز إحداها خارج الماء بارتفاع بسيط لتعاود السقوط، جدوى الفعل، تحفزت فيها أذناها استعادتا صوت أمها لحظة تأنيبها لها. قلبك مثل قلب سمكة. كانت أيامها شابة صغيرة لم تعرف بو قاسم بعد، المعنى المضمن لكلمات أمها أنها بلا ذاكرة، يقين أم قاسم يفيدها أن لا شيء من غير ذاكرة، الإنسان الحيوان النبات الماء، حتى جدران البيوت لا تفتقر لذاكرة تخصّها. مرّت دقائق، يأس السمك المتزاحم وراء السد من إمكانية النفاذ للشط ابتعد للداخل. عند مغادرتها خبّرت ملازم عبدالكريم. سيكون لدينا غموس سمك.



13

شارف الوقت منتصف النهار، اقتربت أم قاسم من موقع خيام العسكر يتبعها قدم خير حاملا خيشة كتان حاوية شبكة سليّة خاصة بصيد السمك، برز لها نائب ضابط صادق يرافقه جندي جاسم، أبدى الأول احتفاءه. أنبأني ملازم عبدالكريم أمس أنك وعدتنا بغموس سمك. لم تجبه بشكل مباشر، أشارت لخيشة الكتان. أحتاج مساعدتكما. استجاب الرجلان من فورهما. لدى رؤيته للشبكة بكرات الرصاص المثبتة بأطرافها هتف. جندي جاسم. سليّة. سأله الآخر إن كان يجيد استخدامها. رد معتدا. ليس بين رجال الفاو من لم يمارس صيد السمك بالسليّة. انتقال الثلاثة لسد نهر سيد رجب، انضم لهم جندي مازن، في اللحظات الأولى لبدء جزر ماء الشط تواترت حركة الأسماك في نهر سيد رجب داخل السد، غمغم جندي مازن مشدوها. هذا كثير. نهره صادق. قُل ما شاء الله. بادر جندي جاسم أدخل يده اليسرى حتى المعصم في عروة حبل ينتهي طرفه الثاني وسط الشبكة، جمع



الأطراف الحاملة للكرات الرصاصية بيده اليمنى، استدار حول نفسه، قبل أن يطوّح بالشبكة ممسكا طرف الحبل لتنتشر في الفضاء، تسقط فوق مساحة الماء القريبة من السد، انتظر ريثما بلغت كرات الرصاص قاع النهر أخذ يسحب حبله رويدا، بدأ السمك الكبير يعفر بقوة هادفا لأن يتخلص من أسر الشبكة لتعلق زعانفه بخيوطها.

بعد سحب الشبكة كليا خارج الماء لهج صادق. هذا من بركات أم قاسم. تجاوز عدد السمك كبير الحجم عشرين، لا يقل وزن الواحدة عن الكيلوغرام، قالت لهم. نُعيد السمك الصغير للماء. ارتأت. نطبخ السمك في بيت الدليشي. لم تجد من يعارضها. مساء اليوم التالي صادفها جندي جاسم. انتهوا من إصلاح الجسور وتسليك الطرق. فهمت إن موعد رحيلها أزف، دارت شعورها بالحزن. متى. لم يفهم قصدها. متى تصل شاحنة التموين. تأمّل سؤالها لحظة. قيادة الفرقة هاتفوا ملازم عبدالكريم، أرادوا معرفة احتياجاتنا الملحة بقصد تلبيتها على وجه السرعة، قال لهم أمورنا ميسّرة حاليا. تساءلت بنفاد صبر. متى تصل شاحنة تموينكم. لا أعرف .غلبها حزنها، مشت لبيتها. يا بو قاسم، إن كان علينا أنا وأنت لا اعتراض من ركوبنا شاحنتهم.. ماذا عن قدم خير، كيف له أن يصعد شاحنتهم طوعاً ويبقى هادئا طول الطريق. التقطت أذناها هديل الحمامة وسط سعف الحلاوية، أمورها إشارات، قرّ في يقينها، يزورني بو قاسم في المنام، يوجهنيٍ لما أفعله. نشطت حركة الريح على حين غرة، سمعت ما يشبه شخيرا من ناحية الحظيرة، الحيوان أكثر انتباها لما يجري، نشطت الريح أكثر صارت



عصفاً، تعكّر الهواء بالغبار، داهمتها نوبة عطاس، لا وقت للإصابة بالزكام، إذا كان لها أن تمرض فلتفعل ذلك في الظرف المناسب، هدأت العاصفة مع تقدّم الليل، لكن حالة أم قاسم الصحية.. الصداع وسيلان الأنف، عزّ عليها نومها، تكاد تجزم. لو غفوت ساعة صرت أفضل. وحدها وسط الظلام وهذا الرتم الثقيل للوقت. لا تجزم متى غلبها إرهاقها فاستسلمت للنوم. ليكن في علمكِ.. رغم نبرة الحزم في صوت ملازم عبدالكريم إلّا أن قسمات وجهه تشي بطيبته، سمعته يستطرد. تواجدك بيننا يتسبب لنا بمساءلات نحن في غنى عنها. أوشكت أن تقول له. أعرف ذلك. لولا مواصلته. تدرين.. لن نجبرك على المغادرة. انتابها انشداهها، كيف له أن يجمع بين ضرورة رحيلها وعدم إلزامها بالتنفيذ. أرادت أن تستوضحه لكنه تلاشى، حضرها وعيها، هي في سريرها، تناهت لسمعها حمحمات قدم خير وراء بابها. أنوار الصباح تنتشر خارجا، تذكرت معاناتها ما قبل إغفاءتها، أنفها أفضل حالا، استعادت تفاصيل حلمها، ملازم عبدالكريم وحده. إن كانت إشارة من بو قاسم لماذا لم يحضر. طمأنت نفسها. الأمور في أوانها، أحست قرصة الجوع، منذ ظهر أمس لم تتناول شيئا، نشطت ناحية المطبخ، وهي تتناول إفطارها حضرها قرارها..

حيا الله أم قاسم. شملها فرحها، مرة أولى يستقبلها ملازم عبدالكريم بمثل هذا الترحيب، سارعت أفضت. قررنا أن نرحل. أزمع استيضاحها قصدها لولا متابعتها. لن نتسبب بإحراجكم أكثر، سنرحل أنا وبو قاسم وقدم خير فجر غد. كمن بلّغ رسالته



استدارت بغية الانصراف، استوقفها نداؤه. يا أم قاسم. هدفت لمداراة دموعها قبل التفاتها. اتفقنا على انتظار شاحنة التموين توفيرا لجانب من مشقّة طريقك الطويل، ما سبب قرارك هذا. أجابت. إن كان علينا أنا وبو قاسم لا اعتراض لدينا، لكنني لا أريد أن أعرّض قدم خير للمهانة. دارى ابتسامته. أين المهانة. أعرفه لن يصعد الشاحنة بسهولة، عدا عن معاناة الاهتزازات أثناء الطريق، لن أتسبب له بالألم. تأمّل كلماتها وهلة. الناس تحمّل الحيوانات في الشاحنات لمسافات تمتد أياما. وافقته. معك حق. غدا ظهرا تصلنا شاحنة التموين. حزنها يتشرّب صوتها. لن نكون هنا.

إعلان أم قاسم لقرارها يعني قبولها بمغادرة السبيليات إلى لا رجعة قريبة، شيء يشبه انتزاع الواحد غصبا عنه وبإرادته في الوقت نفسه، ترسّب طعم المرارة تحت لسانها، حرن قدم خير واقفا أمامها، تتفهم حاجته للألفة إذا ارتأى عليها ارتقاء ظهره، للحيوانات مشاعرها الأكثر رقة. أمر يُحسب للعسكر على الجانبين أنهم لم يشرعوا بأعمال قصفهم المدفعي حتى الآن، ملازمتك المكان، مزاولتك الحياة تحت القصف. نذهب لمقام سيد رجب. إلقاء نظرة أخيرة على أماكنها، غذّ قدم خير سيره داخلا الزقاق مسبقا بإصدار شخرة حادة. ماذا هناك. بلغ سمعها في التو دوي محركات سيارات، التفتت للوراء، رأت سيارة جيب عسكرية تسلك طريقها باتجاه الشط، لحقت بها شاحنة صغيرة مزوّدة بمدفع رشاش يقف أحد جنودهم عنده، تلاشى دوي السيارتين. لن أضطرّك لركوب



أي من سياراتهم. بعد زهاء الساعة جاءها نائب ضابط صادق. أرسل ملازم عبدالكريم خمسة أفراد للبحث عنك. أحست وَهَناً في ركبتيها. أوان الرحيل. فاجأها رده. ليس هكذا. انفرج فمه بابتسامة واسعة. سيدي العقيد طلب رؤيتك. أرادت التنويه باحتجاجها. لم يصدر عني ما يستدعيه.. قاطعها مرددا لازمته. ليس هكذا. سلّمت لأمرهم الواقع، التفتت لقدم خير. بإمكانك الذهاب للدليشية. مشت إلى جانب صادق، اغتنم الأخير فرصته، خبّر. سمعت جانبا من حوار دار بين سيدي العقيد وملازم عبدالكريم.. وهي تصغي له تساءلت مع نفسها عن جدوى ترديده كلمة سيدي مرات عدة. في سياق ما قاله صادق.. باتصال سابق مع القيادة وجهوا سؤالا حول احتياجاتنا الملحة، طمأنهم ملازم عبدالكريم أمورنا جيدة، ردّه أثار اهتمامهم، وحدات جيشنا المرابطة على طول الشط عانت من مسألة تأمين احتياجاتها للطعام مدّة أسبوعين، فصيلنا وحده لم.. عندما وجّه سيّده العقيد سؤاله عن كيفية معالجتهم مسألة التموين أجابه ملازم عبدالكريم. جهد أم قاسم، لهذا السبب طلب سيده العقيد مقابلتها، لم توفّق أم قاسم لمداراة قلقها. الله يستر.

رأتهما جالسين بمواجهة الشط، أحدهما تجاوز الأربعين، يتحلّى بشارات ذهبية عديدة وخطوط حمر، ساررت نفسها. هو عقيدهم. السلام عليكم. بدأ العقيد كلامه. رجالنا هنا يكنّون لك التقدير لحسن تعاونك معهم. لهجت. هذا من طيبهم. عرفت من ملازم عبد الكريم أنكِ لم تستكملي دفن رفات زوجك لكونك مصرّة



على بقائكما معا. سكت ثانيتين. تستطيعين إكمال مراسم دفنه. أضاف مشترطا. إن ارتأيتِ البقاء بمحض إرادتك. هل يحق لها أن تفهم ما قيل لها، حانت عنها نظرة لوجه ملازم عبدالكريم، أمّن الأخير بإيماءة موافقة من رأسه، شدّ اهتمامها تساؤل وجهه لها عقيدهم. هل تجيدين القراءة والكتابة. لم تسأله. ما علاقة هذا بذاك، ردّت. تعلّمت قراءة القرآن الكريم وكتابة اسمي. قال لها. بقاؤكِ يستلزم إقراركِ بتحمّلكِ تبعات ما يحدث لكِ.. يا بو قاسم، تدري عن حربهم، تعرفها باقيةً مستمرة ولا من يعرف متى تتوقف.. لا مجال وسط الظرف لأن يعلن الواحد فرحه، أصارحك أنا فرحة لدرجة الضحك، سأبدأ إهالة التراب على رفاتك عصر اليوم، هناك المزيد من الطابوق عند منزل الملا حسين، نتعاون أنا وقدم خير نأتي به، أود لمرقدك أن يبدو جميلا..



14

إضافة لمنجلها تزودت بشبل. تعال يا قدم خير. استطردت وهي تمشي أمامه. نذهب للحلبي نأتي بشتلات جوري. سارع قدم خير في خطوه، تجاوزها ليعترض طريقها، شاع احتفاؤها في داخلها، امتطت ظهره، الوقت الأجمل لديها يتمثل في ظرفين، أن تجلس بمواجهة قبر بو قاسم تبادله الحديث، وأن تكون بمواجهة الشط، هذا الكائن الأفقي اللا متناهي الامتداد، ساكن إلى حد ما من خارجه، ضاج من داخله بأنماط حياة لا حصر لها، سحبت لصدرها شهيقا احتفظت به برهة، تغافلت حدس أنفها بوجود شيء متخلف من دخان البارود، تمعّنت رطوبة الهواء المُشبعة برائحة الطمي، تجزم أن قدم خير سعيد بوجوده قرب الشط، ترجلت عن ظهره، راقبته، يقترب للساحل، يتثبّت من مواقع حوافره وهو ينزل الجرف الطيني صوب الماء، يمد بوزه، يشرب ما شاء، تابعا طريقهما لموقع حرش الجوري، زحمة الزهور المتفتحة حديثا، جاءت لهذا الحرش قبل هذه المرة لماذا لم تستنشق رائحة الورد بالحضور ذاته، لعله اطمئنانها



لبقائها هنا ضمن زمن مفتوح لا تعاني تهديداً موقوتاً بالترحيل، هبطت الجرف، خوّضت في الماء حول الحرش من ناحية الشط، اكتشفت وجود نبتات قوية محملة بالكثير من الورد المتفتح، استعانت بمنجلها للتخلص من أغصان مفرطة الطول، أبقت على المزهر منها، قبل أن تختار أربع نبتات بالحجم الكبير وأربع أصغر حجما.

لدى اجتيازها سد نهر سيد رجب سمعت صفيرا ممقوتا أعقبه دوي انفجار داخل أحد البيوت، عشوائية الحرب من عدوانية مشعليها. لن نسلّم لهم، نعثر على مكان سقوط القذيفة، نصلح ما أمكن. عمّ الجوار صوت إطلاق قذيفة مدفع من موقع قريب، جفل قدم خير، أحد الطرفين يؤكد وجوده ليرد الثاني، حربهم الحقيقية تدور في أراض بعيدة. دخلت بيت الدليشي، حوض السدرة ما زال رطبا، زرعت شتلتي جوري صغيرتين، روّتهما ماء، الشتلتان الصغيرتان الأخريان كانتا من نصيب بيت عبود الأطرش. ليست مجرد شتلات صغيرات يا بو قاسم، هن نبتات بالغات حاملات وردهن، كنت وعدتك إذا سخّر الله قلوب العسكر لنا سلّموا ببقائنا هنا أزيّن لك بيتك. بعد أسبوع زارها نائب ضابط صادق يصحبه جندي جاسم، أبدى الأوّل إعجابه بمنظر الجوري المزهر في حين أشار الثاني لسعف الحلاوية. بدأ يتحوّل للون الأخضر.غافلتها زفرتها. لن يدوم ذلك. لماذا. سألها جندي جاسم، ردّت. ستجف أنهارنا قريبا. أضافت. سدودكم تمنع عنها الماء. نفى نائب ضابط صادق.



ليست سدودنا. في حين تساءل الأخر. ما الحل. لم تتأخّر أجابتها. الحل عندكم. تبادل الرجلان نظرات استغراب، في حين استطردت أم قاسم مشيرة لقبر زوجها. أو يُبدي بو قاسم رأيه. عاد الرجلان تبادلا نظراتهما. صبيحة أحد الأيام سمعت دوي محركات عملاقة، خرجت للطريق، شاهدت شاحنات عسكرية بمقطورات طويلة تحمل مدافع ضخمة، وأخرى محملة بقذائف متفاوتة الأحجام، يقولون حرب استنزاف، ولا تفهم من يستنزف ماذا.

تتوفّر لها فرصتها كي تخلو بنفسها، تتأمل كيفية تأقلمها، لا تشغلها ساعات النهار لدرجة الجزع ما دامت قادرة على سماع صفير القذائف القادمة، إمكانية الاحتماء أو المسارعة بالانبطاح أرضا بغية تحاشي الشظايا كما نبهها نائب ضابط صادق، المعضلة الحقيقية تتمثّل في ساعات الليل لما يكون الواحد مستغرقا في نومه، فإن تصادف سقوط قذيفة ما فوق سطح الغرفة.. لا تريد لنفسها أن تموت بغياب أولادها، أعملت فكرها. لا بُدّ من اللجوء لمقام سيد رجب، دخلت منجرة عبود الأطرش، اختارت أوتادا متساوية الحجم، ساعدها قدم خير على نقلها حتى محيط مقام سيد رجب. حددت مساحة أرض من الجدار الغربي لمبنى المقام، في بالها أن تُقيم ملجأها عنده، لا تدري من أين عرف ملازم عبد الكريم بوجودها في المكان، وصل يرافقه نائب ضابط صادق وثلاثة جنود. خير يا أم قاسم. أردت إقامة عريش. أومأ لجنوده، بادروا لتولي العمل، قبل أن يواجهها بسؤاله. لمن العريش. أجابته. لي، ألجأ إليه ليلاً. تتركين



بيتك. لن يحميني بيتي إذا اشتد القصف. ما أدراك أنه سيشتد. ردّت عن قناعة. سيشتد. تساءل بدلالة الإحالة. هل أنبأك المرحوم بو قاسم بذلك. لا. سكتت وهلة. لكنه زارني البارحة، كان حزينا على غير عادته. سايرها ملازم عبدالكريم مُبديا اهتماما. ما سبب حزنه. لا أعرف. استطردت. لكنه غادر متعجّلا حاملا فأس جارنا عبود الأطرش. لم يُخف ملازم عبدالكريم امتعاضه، غمغم كمن يُحدث نفسه. مرة ثانية. قال لها باقتضاب. أريد أن أراك في الموقع بعد ساعة.

إقبالها على الشط يشرح لها صدرها لولا امتعاض ملازم عبدالكريم منها، ليته يعرف هو بمعزّة أيّ من أولادها، أصدرت سعلة تنبيه وهي تواجه خيمته، ارتاحت قليلا لوجود نائب ضابط صادق، أزمع الأخير الانسحاب لولا استبقاء رئيسه له. لعلّك تفهم على أم قاسم أكثر مني. التفت إليها. هل نتوقّع اكتساح الماء لسدودنا من جديد. امتعاضه يتشرّب صوته، ردّت بصوت خفيض. الله العالم. ما الذي تخفينه عنا. تساءلت جزعة. أنا. ما سرّ التوقيت بين ظهور زوجك في الحلم كما تزعمين وبين أعمال تخريبية لا يقدم عليها إلّا..لم يوف توصيفه، اضطربت شفتا أم قاسم دون أن تنبس. احتدّ صوته. ماذا تريدين بالضبط. عادت تساءلت جزعة. أنا. ماذا وراء عدائك للسدود. أنا. لو حدث لأي من السدين.. بتر جملته، أكمل. أبعدناك عن هنا فورا. دمعت عيناها. إن شئتم غادرتكم الآن. هل تخفف ملازم عبدالكريم من



انفعاله، التفت لنائب ضابط صادق. ما العمل مع أم قاسم. سألها الأخير متعاطفا. ما سبب اعتراضك على السدين. انطلق لسانها. السدود رحمة إذا حجزت الماء ونقمة إذا منعته. هذه السدود كانت موجودة قبل مجيئنا. لم تكن موجودة قبل ترحيلنا عن هنا. أُقيمت هذه السدود لأغراض عسكرية. رقّ صوتها. لا أفهم أغراضكم العسكرية. واصلت. إذا منعت الماء عن البشر والحيوان مشوا لأماكن وجوده، لكن الشجر يموت في أرضه. أراد مسايرتها. ما الذي تقترحينه. في طريق مجيئي من النجف عبرت سدودا عديدة لم تتسبب بقتل الأشجار، وضعوا أنابيب في عمق الأنهار وأهالوا عليها التراب، سمحوا بوصول الماء للمزارع ومرور الناس والسيارات. هنا منطقة عمليات عسكرية. رقّ صوتها أكثر. وضع أنابيب تحت سد ترابي لا يتعارض مع منطقة عمليات.. بترت جملتها، هل اغرورقت عيناها. تساءلها ملازم عبدالكريم متعاطفا. أنت مهتمّة بمسألة الري. أجابت. قتل النبات حرام.

لقاؤهم بما انتهى إليه، هناك أنابيب إسمنتية تفي بالغرض، حتى لا يبدو متعاطفا مع الفكرة قال ملازم عبدالكريم. قررت الذهاب لمركز قيادة الفرقة فجر غد بصحبة جندي جاسم، ولن نعود قبل مغيب الشمس. ختم موجها خطابه لمساعده. لا أريد معرفة ما يجري خلال غيابي. ابتسم نائب ضابط صادق. أمرك سيدي. لم تكتف أم قاسم بإنجازها ذاك، قبل انصرافها ارتأت على ملازم عبدالكريم. ليتنا نشتري بزورات خضروات. بزورات ماذا. بإمكاننا

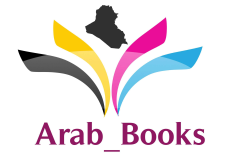


زراعة البامية والخيار والطماطم وما شابه. كيف تفكرين. جندي جاسم يعرف في هذه الأمور.. مادار في بالها أن تتساءل كيف نمت نبتات الجوري الأربع بهذه السرعة ارتفعت عالياً بفروعها،شكّلت عريشا زاخرا بورود متفتحة، النخلة الحلاوية بدت أكثر خضرة دانية بعثوق خلال أصفر ريّان، أرضية العريش مفروشة بحصير نسل ووسائد صوفية ملونة، كانا جالسين متقابلين، قالت مضمنة معنى لا يفهمه غيره. لن يعود الأولاد قبل الليل. أجابها بو قاسم عاتبا. لا أظنك باقية تحت هذا العريش حتى الليل. مهّدت لتساؤلها بابتسامة محبة. هل أنت منزعج. واصلت. اضطررت للبدء بإقامة عريش ثان عند مقام سيد رجب مخافة أن.. أبقت جملتها ناقصة، بدأت ثانيةً. أنت لا تهتم إذا اشتد القصف. فاجأها وجّه لها سؤالا لم يخطر لها. هل أنت جادة بمسألة زراعة الخضروات. آثرت أن تعمل على طمأنته. جنودنا لن يترددوا عن مد يد العون. خُيّل لها أنه منشغل الذهن. ملازم عبدالكريم نائب ضابط صادق أنابيب إسمنت. عاتبته. لا أفهم. عملك هذا كلّه.. أبقى جملته مفتوحة، سألته. ما الذي يزعجك. مجهود ضخم. لست وحدي. سارع نهض، ناشدته. أنت غاضب مني. شدهها رده. أنا غاضب لأجلك. تعبيره بكيفية لا تفهمها. ماذا تعني. تتعبين نفسك. ضحكت، مدّ لها يده. تعالي. ناولته كفها، باغتها تلاشى من عندها. أين أنت. ليس من يسمع، وجدت نفسها جالسة وسط سريرها، إحساسها بتنمّل كفها، هذا اليقين الحاضر بملمس يده، كان الوقت شأن أحلام سابقة ما بعد الفجر بقليل.



مغادرة ملازم عبدالكريم يرافقه جندي جاسم، أبقى نائب ضابط صادق على ستة جنود في مرابض المدافع المواجهة لشط العرب، ووزّع الباقين ضمن ثلاث مجموعات، أسند للأولى مهام نقل عشرة أنابيب إسمنتية عملاقة من موقعها في ساحة المخلفات، وجّههم لوضع خمسة قرب السد الترابي لنهر سيد رجب وخمسة أخرى عند سد نهر الچومة، في حين تكفّلت المجموعة الثانية بأعمال إزالة جانب من تراب سد نهر سيد رجب وتولت الثالثة أمر سد نهر الچومة. باشروا بالحفر حوالي الساعة السادسة صباحا، كانت حالة ماء شط العرب وقتها جزرا تماما، انهوا عملهم قبل التاسعة مع بدء ارتفاع المد في الشط، تولوا وضع الأنابيب الإسمنتية، خمسة في عمق أي من النهرين، أعادوا الحال إلى ما كان عليه. مع ارتفاع المد بدأ اندفاع الماء نحو الداخل بحيوية لافتة.




Arab_Books

15

لو نهضتِ بأعباء حراثة أرض هذا البستان وحدكِ لما انتهيت منها قبل ستةَ أشهر. فيكم البركة. تعاون عشرة جنود بإشراف جندي جاسم على تقليب أرض بستان أم البرحي وتسويتها قبل إعدادها بنظام مستطيلات متوازية، استغرقهم جهدهم ذاك سبعة أيام. ما الذي تريدين زراعته أولا. سألها جندي جاسم، غلبها حماسها. نزرع كل شيء. بعد أسبوع من زراعتها بدأت البراعم الخضراء للبامية وعباد الشمس والذرة تشق سطح التربة، لم يكن جندي جاسم يحتاج وضع خيال مآتة وسط الأرض المزروعة حديثاً لغرض إبعاد طيور متطفلة لأن الأخيرة لم تعد للاستيطان في الجوار بعد. بعض أنواع البقول مؤهلة لأن تعتمد على جهدها الذاتي إذا لجأنا لزراعة بذورها ضمن مستوى محدد في جوانب الجداول حيث يصلها ماء المد مرتين يومياً، لا بأس أن نستنبت بذور اللوبياء والباقلاء والفاصولياء. ظاهرة المد والجزر عندكم غيرها عما هي عليه في الفاو. اصغت أم قاسم لجندي جاسم يواصل. أنهارنا هناك تُفرغ



ماءها كله مع أخر الجزر، حيث تبدو قيعان الأنهار طينية حمراء، يعود السبب لانحدار البساتين باتجاه الشط وقربها من الخليج. أفهم من كلامك إن ماءكم مالح لا يصلح للشرب. هو مالح لمن لم يعتد عليه. استطرد. لكن أراضينا خصبة، تزرعين غرسة الموز قرب النهر، تنمو خلال ستة أشهر تنافس أشجار التوت المعمرة ارتفاعا، أما إذا حدثتك عن أنواع الفواكه، الترنج الليمون البرتقال اليوسف أفندي المشمش العنب. تسمعه يسترسل يصف المدبسة. كنا نملأ مئات التنكات بالدبس بعد انتهاء موسم جني التمور. تكاد تقتنع مع نفسها.. جاسم ينافسها حُبّا بالأرض.

الأيام، مرورها، ما تنطوي عليه من مشاعر بالإنجاز، شتلات الجوري لا تكف عن أن تُزهر، في حين لوّنت نبتات البقول من خلال تنويعاتها بستان أم البرحي بالأخضر. قصفهم باق على وتيرته، يغيب نهارا فتبدو الحال وكأنها هدنة غير محسوبة ليشتد ليلا باعثا جزعا وقلقا مفادهما أنت خطوة من موت محقق، أو إنه يشتد نهارا مستهدفا ما لا تعرف ماذا، يهدأ ليلاً، يراودك توقك أن تنام قرير العين ولا تستطيع ذلك لأنك لا تأمن عدم سماع صفير قذيفة آخذة طريقها نحوك. معايشة الظرف، محاولة التعايش معه، دأبت أم قاسم على تخصيص ساعة الصباح الأولى لخلوة مع بوقاسم تبادله حديثها، لتقوم بعدها بجولة تفقدية لبيوت تعرّضت للقصف حديثا، يجب ألّا تبقى هذه المناظر المؤذية للعين، بعد استئذان ملازم عبدالكريم تطوّع جندي جاسم لمرافقتها جولاتها التفقدية مشاركتها



نشاطاتها الترميمية. وزّعت ساعات الظهيرة والمساء بين بستان أم البرحي وعريشها الكائن عند الجدار الغربي لمقام سيد رجب مبعدة بضعة أمتار من المدخل الرئيسي لأم البرحي. من أين جئتِ بشتلات الجوري. سألها جندي جاسم. لم تسأله ما الذي يدور في باله، طلبت من قدم خير أن يدلّه على موقع الحرش المعني، تطلّع اليها جندي جاسم مذهولا. تأمرين الحمار أن.. لفتت اهتمامه. سارع للحاق به. رأى قدم خير يحث خطوه مبتعداً، نشط للحاق به، مرّت ساعة، عاد بعدها محملاً ظهر قدم خير بأربع شتلات جوري مُزهرات. خفق صدرها باحتفائها. أين تزرعها. هنا. أشار لمساحة الأرض أمام العريش، لا تدري كيف خانتها عيناها اغرورقتا بالدمع، من غير المناسب أن يراها وسط انفعالها، دارت وجهها، رددت في دخيلتها. هذا كثير.

اشتداد حرارة الصيف مع بدء نضوج التمر في شهر يوليو، صار الجلوس داخل العريش ساعة الظهيرة مدعاة انتعاش، اغتنم جندي جاسم وجوده إلى جانب أم قاسم. أعاني صعوبة في أن أناديك أم قاسم. تطلعت إليه مستنكرة. ما وجه الصعوبة. تجاوز إجابة سؤالها. أود لو أقول أمي. التمعت عيناها بسعادتها. عندي ثلاثة أولاد أنت رابعهم. حدّثها مرّة. لا يذكر من سنوات طفولته الأولى سوى بيتهم الطيني، دجاجات أمه، كان من غير أشقاء أو شقيقات، توفيت أمه قبل أن يُكمل سنته الثالثة لحق بها أبوه بعد أشهر، تفتّح وعيه في بيت عمه، شفّ صوته بحنينه. من حسن الصدف أو سوئها كان



عمي من غير ذرية، زوجة عمي طيبة وفّرت لي ما احتاجه من رعاية، كان لدينا كلبان ذكران يقضيان معظم وقتهما يفتعلان عراكهما بينهما وكانت زوجة عمي تتدخل كطرف ثالث. ضحكت أم قاسم لتوصيفه الأخير. أين هم الآن. لا تدري إن كان قد تفاجأ بالسؤال أم لم يفهمه، تابعت موضحة. أعني هل تعرف أخبار أهلك. كان في الخدمة عندما صدرت أوامر الإخلاء. هدفت للتخفيف. تنتهي الحرب ويعودان للبيت. باغتها سؤاله عفوياً. أي بيت. من يلاحق أخبار الحرب يعرف أن الفاو، تحديداً، تعرضت لآلاف القذائف طوال ثلاث سنوات حرب. التقط أنفاسه. لم يبقوا حجرا فوق حجر، يبدوا أنهم اتخذوا قرارا يقضي باحتلالها. عرفت أن المعنيين هم الطرف الآخر، قالت مبيتة استنكارا. يحتلونها بعد تدميرها. تلفّت خشية وجود من يسمعه سواها. نحن بدورنا دمرنا العديد من مدنهم الحدودية. إن كان عليها هي تكره الخوض بأحاديث تتصل بالحرب، تكره الحرب أساسا.

الخريف يؤذن باقتراب الشتاء لا تدري من أين جاءها جندي جاسم بفكرة الاستفادة من فائض التمر. نُقيم مدبسة. رحل صوته وراء تصوّره. دبس تمر البرحي يضاهي العسل يفوقه من حيث النكهة والرائحة. بصفته صاحب الفكرة بدأ بتنفيذها، تشييد حوض مرتفع عن مستوى الأرض زهاء المتر، استحداث فتحات عند قاعدة الحوض، تتصل بمجموعة من السواقي الضيقة منحدرة نحو حفرة مناسبة. بعدما نملأ الحوض بالتمر نضغطه قدر الإمكان، ثم



نترك له فرصة إفراز عصارة دبسه من أسفل. صارت المدبسة مؤهلة لتلقي التمر. اشتدّ قصفهم ذات ليلة، سقطت إحدى قذائفهم على مهجع يتواجد فيه جندي جاسم، استشهد رفيقه من فوره، في حين أحس الآخر بخدر غريب ينتاب ذراعه اليسرى، صدمة اللحظات الأولى، الانشداه وعطالة الذهن، أشلاء رفيقه المتناثرة حوله، لم يستوعب ما حدث، تنبه له نائب ضابط صادق، حاول إيقاف الدم المتدفق من عند الرسغ، بُهت جندي جاسم وهو يرى عظمة رسغه العارية. فقدت كفي. وعيه الآخذ بالتلاشي، تساءل بصوت هابط. أين هي. وصلت عربة الإسعاف العسكري ساعة الظهيرة، الإعداد لنقل أشلاء الجندي القتيل، والآخر المصاب، يده اليمنى تحمل لفافة قماش صغيرة تحوي هشيم كفه اليسرى، قبل صعوده العربة أوصى جندي جاسم نائب ضابط صادق. ليتكم تحتفظون لي بمكاني في مقبرتكم. دفع له باللفافة الحاوية كفّه. إحساس باقي العسكر بالفقدان، سادتهم حالة قنوط طوال يومهم ذاك. يا بو قاسم، ليس لدي من أكاشفه بآلامي سواك، مُفجع أن يُقتل أحد الجنود الشباب وهو نائم، لا أظنك ستقول، مات سهوا من غير علمه، أو إنه لم يتألم حين واجه الموت، لا أدري، لم أعرف ذلك الشاب عن قرب، عرفت اسمه بعد استشهاده عدنان، من أهالي سامراء، جمعوا طشاره داخل كيس، قد لا تُصدقني، الذي حزّ في قلبي أن تُبتر كف جاسم، ليغادرنا إلى لا أعرف أين، تدري عنه إنه استأذنني يناديني يا أمي، وتدري عني كنت فرحة بولدي الرابع، هدية لا تقدر بثمن، مشاعر أمومة خالصة تكنها فيك وأنت تراه



يتحرك أمامك، لم أحضر مشهد مغادرته، لم أكن واثقة من قدرتي على الصمود، حضرت دفن آثار متبقية عن جندي عدنان، وكف ولدي جاسم. يا بو قاسم، هل أفرح قليلا.. جاسم ما زال حيا، أم أحزن لأنه صار معاقا في يده، هل أفرح لأنه نال فرصة الابتعاد عن منطقة الحرب، أم أحزن لكوني ما عدت قادرة على أن أراه يوميا أمامي، كنت أنتشي من داخلي عندما أسمعه يردد، يا أمي، وحده اختار أن يصير ابنا لي، إن كان جاسم فقد كفا، أنا فقدته كله، يبدو لي إن واحدنا لا يعرف قيمة ما عنده إلّا بعد ضياعه.

عند حلول الليل زارها نائب ضابط صادق مع جندي مازن. دفع لها الثاني كيسا ورقيا يحوي بضع خبزات تموين جيش. افتقدك ملازم عبدالكريم بعث لك بالخبز الذي تحبين. شارك الآخر قائلا. لم نجدك عند عريشك، هل ستقضين ليلتك هنا. لا تجزم لماذا أشارت ناحية القبر. لا أعرف عن قرار بو قاسم. تظنهما بذلا قصارى جهدهما يداريان حزنهما جراء حدث البارحة لكن المرارة الكامنة في قرارة صوت أي منهما تثبت العكس. قبل مغادرتهما لفت جندي مازن اهتمامها إليه. سأتواجد غدا صباحا في مزرعة أم البرحي. أومأت برأسها موافقة.. لديك ثلاثة أبناء وتحزنين على رابع لم يتشكّل في رحمك. هدفت لاحتواء احتجاجه، لوّنت صوتها بمحبتها. لا أظنك غاضبا لهذا السبب. غاضب لك جراء حزنك الشديد. قالت له. أنت لا تختار أن تكون سعيدا أو حزينا. سلّم لها. لأنك تصرين.. كانا جالسين متقابلين فوق حصير نسل أمام العريش عند مقام سيد



رجب، تنبه لشتلات الجوري، أبدى ملاحظته. هي ذات الصنف المزروع عند قبري. لم تتأخر توضيحها. مبادرة من ابني الرابع. ما دام هو الذي زرعها.. سكت وهلة، أكمل بحس الثقة. سيعود كي يتفقّدها. تملكها استغرابها. من أين لك قناعتك هذه. من محبته لك. عاتبته. تقول كلاما غير مترابط. لكنه واصل. من محبتك له أيضا. أنت تبالغ كثيراً. أفحمتها إجابته. المحبة الخالصة لا تعرف المبالغة. هبّت في التو ريح قوية عصفت بطربال العريش، رفعت عينيها تتفحص ما حدث، عادت تطلعت إليه، لم يكن موجوداً عندها، هتفت به مفجوعة. بو قاسم. تلاشى المكان العريش كأن لم يكن. استوت جالسة في سريرها. تناهى لأذنيها صوت شخير قدم خير من وراء الباب الموارب، ساعة الفجر أو بعدها بقليل، نهضت، احتفى بها قدم خير، قدّم لها رأسه، ربتت عليه بحنو.

كانت تقف إلى جانب حوض المدبسة. يجب أن لا نخيب ظن جندي جاسم. تطلّع إليها جندي مازن مستغربا، تابعت منحى اقتراح. نملأ الحوض بالتمر. انفرج فمه عن ابتسامة أسيانة. نحتاج من يساعدنا على جني التمور، جمعها وتنظيفها، ومن ثم.. أبقى جملته مفتوحة، تشرّب حزنه صوته لدى مواصلته. لو كان جاسم هنا.. قاطعته بيقين. سيكون هنا. أخذت دهشته وجهه. هل قال لك ذلك. لا. لم يتخفف من دهشته. كيف عرفت. حضرتها إجابتها. أخبرني بو قاسم. أضافت. الموتى لا يكذبون. سمعته يغمغم مع نفسه حائرا. لا أعرف. ليس ما يدعوك لأن تتشكك. تأمل كلماتها الأخيرة، عنّ

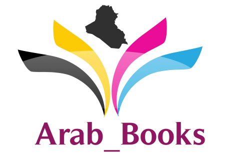


له أن يسألها. متى يعود. لن يتأخر كثيرا. تابعت. لم يُشر بو قاسم ليوم محدد. أعمل جندي مازن ذهنه. يلزمنا استشارة نائب ضابط صادق، المدبسة تحتاج رجالا عديدين. بإيعاز من نائب ضابط صادق تطوع أربعة جنود شباب من ذوي النشأة الفلاحية يجيدون جني التمور، تنقيتها، تكديسها.. ضحى أحد أيامها تلك أرسل ملازم عبدالكريم بطلبها. أود ألّا يعرف الأخرون بموضوع حديثنا. دارت شعورها بالقلق، وعدته. سرّك في بير. توخّى كياسته. موضوع حديثي يتصل بك. كبر قلقها. هل اتخذتم قرار إبعادي عن هنا. ليس هكذا. أطلقت زفرة حائرة، تمنت عليه. ليتك تقول ما تريد. تدرين يا أم قاسم عن احترام الجميع لك. لم تجد ما تعقب به. عدا عن كون الجميع هنا يحترمونك هم يأخذون ما تقولينه على محمل الجد. لو صارحته بأنها لم تفهم قصده، تابع. جنودنا ناس بسطاء بروح إيمانية عالية.. لو تساءلت عمّا يقوله. لا نريد لهم أن يرفعوا شخصا ما لمصاف الأولياء. لم تُطق صبرا أكثر، صارحته. لا أفهم قصدك. بعض الجنود يقولون أم قاسم تقرأ الغيب. انتفضت جزعة. استغفر الله العظيم. أضافت متسائلة. هل تطلبُ مني المغادرة. فاجأها ردّه. أريد لك البقاء شرط أن لا نذهب بعيداً بخيالاتنا. استجمعت بعض هدوئها. كيف. أنتَ لم تري جندي جاسم بعد إصابته. لا. لم يخبرك عن قرار عودته المتخيّلة. تقول كلاما يصعب فهمه. دعيني أسألك.. أين ذهبوا بجندي جاسم. لا أعرف. لكنك أطلقت إشاعة تفيد بعودته قريبا. لم .. سكتت ثانيتين. بو قاسم هو الذي.. أدركت هشاشة حجّتها، قالت بضعف. أنا رهن أمرك. رق صوت ملازم عبدالكريم قليلا.



جندي جاسم نزيل المستشفى التعليمي في بغداد، مع ظروف الحرب لا أحد يستطيع الاتصال به. سحبت لصدرها شهيقا عميقا بدلالة ارتياح موقوت. سألها. ماذا لو لم يعد لشهر قادم. استجمعت إرادتها. إن كان ما قاله بو قاسم كذبا غادرتكم نحو النجف. حرّك رأسه بدلالة الأسف. لعلّك لا تعرفين.. ترك جملته معلّقة، أضاف. الجنود الذين يصابون بالإعاقة يُعفون من الخدمة العسكرية بشكل آلي..




Arab_Books

16

لماذا الكدر، لماذا أسباب الكدر، حين تتأمل علاقتها بالمكان الأن، الجنود عامة، ملازم عبدالكريم خاصة، لا تجد ما يستدعي الاختلال لدرجة الشك أو التأنيب، لا بأس من مواجهة قرار الإبعاد إذا كان نهائياً، يؤلمها أكثر ارتهانهم لبقائها باشتراطات خارج سيطرتها، لمّا تبادلت حديثاً عابراً مع أحدهم، لما خبّرت عن عودة جندي جاسم، لم يراودها هاجسها أن يُشاع عنها قراءتها للغيب، هذا أمر لا يعلمه سوى الله، الحال بالنسبة لها، رسالة محددة قالها بو قاسم، رأى نبتات الجوري، تنبأ بعودة من زرعها، تتذكر كلمات تحمل روح الدعابة قالها لها ابنها صالح أيام كانت تساكن عيالها في النجف. أنت تستدعين أبي في أحلامك لكي تسمعين منه ما تحبين. تتذكر أنها أنبته. كلام مردود عليه، ما زارني أبوكم مرة لكي يرضيني. تتذكر كلمات قالها ابنها الآخر حميد مخاطبا أخاه. لا يستطيع واحدنا أن يبيّت مع نفسه ما يرغب برؤيته في منامه. يحضرها صوت صالح. أمي قادرة على فعل ذلك. وقتها تدخّل ولدها الأكبر قاسم واضعاً حداً للجدل.



حتى على حياة أبي كانا هو وأمي جسدين بروح واحدة. استعادتها أصوات أولادها، حضرتها صيحات أحفادها وحفيداتها، شفّ حنينها لهم، الرعاية وحفظ المكانة، لعلها تسرعت بقراراتها التي انتهت بها هنا، سكن أساها داخل صدرها. ما هو رأيك يا قدم خير. طأطأ رأسه. ماذا لو سلكنا درب العودة للنجف. خنست صوبه، لم تبدر عنه شخرته المعتادة، استطردت. نختفي من عندهم دون علم أي منهم، يستيقظون صباحاً ما ولا نكون في الجوار. عندما سألها جندي مازن. كمية التمور التي نكدسها داخل حوض المدبسة. لا أعرف. قالتها من غير حماس، تطلّع فيها مُحبطا، أضافت نافضة يدها. أمركم عائد لكم. صرفت حالها مبكرة، توجهت لمنزلها. يا بو قاسم، أين الخطأ، بي، بك، أمِ بالآخرين، يقال عن فلان نيّته صافية، أجزم بأن نيتي صافية جداً، لم أبيّت شرا لأحد أو تراودني فكرة الإضرار بأحد، كل الذي أردته أن نكون أنا وأنت هنا، على الرغم من الرعاية التي حفّني بها أولادنا إلا أن حنيني لهنا اضطرني لتحمّل مشقة الطريق، الأخطار المحدقة، مهددة بين لحظة وأخرى بالطرد، حتى إذا ما توفرت لي فرصة البقاء بقبول من الجميع حدث أمر تعرفه لأنك شريك فيه.
قبل مغيب شمس ذلك اليوم بدأ القصف ليشتد، لم تلجأ لعريشها عند مقام سيد رجب، تأسّت لقدم خير، رأته يرتعش جزعا، قالت له. إن كان مكتوباً علينا الموت اليوم متنا سواء لازمنا بيتنا هنا أو ذهبنا للعريش. جاءته بمنقوع حبوب الباقلاء مع نوى التمر، الرائحة المتخمرة للطعام الفاخر بددت له جزعه أقبل على وجبته بنهم. بعد زهاء ساعة توقف القصف.



أنتِ امرأة حساسة زيادة عن اللزوم. احتجّت. طوال عمرنا لم تقل كلاما شبيها. كانا يستلقيان إلى جانب بعضهما في سريرهما، مال برأسه ناحيتها. قال. المصارحة وجه للمحبة. مدت يدها، لامست وجهه. أنت حبيبي. لثّم يدها. لا يغيب عن بالكِ أنك عانيت الكثير ريثما وصلت السبيليات. نطق كلمته الأخيرة مضمنا حسّا بالفقدان، عاتبته. تأتي على ذكر السبيليات وكأنك لست مقيماً فيها. لعل ذلك نتيجة للأفكار التي تراود ذهنك تمهيدا لابتعادك. لستُ صاحبة قرار البقاء أو المغادرة. رفع رأسه قليلا، تطلع إليها في عمق عينيها. يتوجّب علينا أن لا نتعامل مع جماعتنا بمنطق التحدي. تملكتها دهشتها. أين هو منطق التحدي. تذكري وعدك إن لم يعد جندي جاسم خلال شهر.. سكت لحظات. تألفنا وإياهم يقتضينا أن نتفهمهم. شعرت بيده تضغط كفها بحنو. في زمن سابق كان لك ثلاثة أبناء. أدركت مغزاه، سارعت أفصحت. صاروا أربعة. شدهها اعتراضه. خطأ. لم تدار شعورها بالألم. هل تكره أن يكون لي ابن رابع. رد مبتسما. عدد أبنائك يتجاوز الأربعين. ضحكت. أنت تبالغ. الموتى لا يبالغون. لا بأس عليك. رفعت ذراعها كي تحضنه إليها، تنبهت إلى إن يدها هوت في الفراغ، استُفزّت فيها حواسها. وحدها وسط ظلام الغرفة. التقطت أذناها صفيرا عابرا، أعقبه صوت انفجار في ساحة المخلفات وراء بيتها، خنست في سريرها، ها هي أعمال قصفهم آخذة تتجدد، أشلاء جسد جندي شاب وكف يسرى لجاسم، يا بو قاسم متى تتوقّف هذه الحرب. توالت أصوات انفجارات بعضها قريب والأخر بعيد،



تملكها يقينها. معنى ذلك إن حربهم تظل مشتعلة لسنوات قادمة. على الرغم من معرفتها بأن بو قاسم يؤيد فكرة بقائها هنا، على الرغم من توقها المعذب لئلا تغادر إلى مكان آخر، رسخ في دخيلتها ما عادت الحال مثلما هي، للحرب شروطها الصارمة، ملازم عبدالكريم بصفته مسؤولهم هنا قال كلمته، المهلة المحددة، تفحّصت داخلها، لا مكان لمراجعة موقفها باعتذارها، لا مجال لأن أمثل أمامه، أنا آسفة لن أكرر ما قلته بخصوص.. المسألة لا تكمن في خطأ تلحقه تبعات محددة، لكنها الحرب بلا محدودية تبعاتها. قبل انتشار طلائع أنوار الفجر تباطأت وتيرة تبادلهم قصفهم ريثما كفّوا نهائيا. تعال يا قدم خير. سبقها خارجا من الباب، ثم وقف في حالة استعداد، أدركت طلبه. ارتقت ظهره. نذهب لقبر جندي جاسم. انفرج فمها بابتسامة مفارقة مريرة. جاسم لم يمت. أردفت. نقرأ الفاتحة على كفّه. رآها نائب ضابط صادق واقفة عند شارة القبر اقترب منها. لا أريد أن أقول أنت بالغت في مسألة عودة جندي جاسم. تطلّعت إليه عساها تدرك قصده، استطرد. لم يسبق أن عاد أحد الجنود ممن توفرت لهم فرصة الإعفاء من الخدمة. ساررت نفسها. ما الذي يريد قوله. بيني وبينك. قال كمن يأتمن الآخر على سرّه، أكمل. في حالات عديدة لجأ جنود من المرابطين في الجبهة لإطلاق النار على أقدامهم كي يُحدثوا عاهة تكفل لهم ميّزة الإعفاء من الخدمة. لم أفهم قصدك. اختصر ردّه. لن يعود جندي جاسم. استدرك. حتى لو تمنينا ذلك. أجابت محدّثة نفسها. الله يكون بالعون.



الأيام عد تنازلي للمهلة التي وعدت بها ملازم عبدالكريم، بدأت تعاني مشاعر غريبة عليها، حزن تغالبه حيرة، كآبة ثقيلة لا عهد لها بها، أرق ليلي لا طاقة لها على احتماله. ما الذي تنصحني به يا بو قاسم. لكن الأخير لم يعد يتراءى لها بين الليلة والليلة شأن حال سابقة، نومها النادر، ساعاته القليلة، فإن حدث أغفت، بعد معاناتها أرقها، راحت في سبات أخرس خال من أيّما أحلام. ليس ما يدعوها للبقاء، ليس ما يلزمها بالمغادرة فورا، مآل أيامها المتبقية عن مهلة الشهر أن تنقضي، أمر واحد لم تستطع إغفاله نهائيا، مسألة ترميم جدران البيوت التي تتعرض لإصابات قذائف، وكذلك جمع معدن خردة القذائف، نقله إلى حيث حفرة المخلفات. قصدها جندي مازن ضحى أحد الأيام. أنت لا تتفقدين بستان أم البرحي. قالها مبيتا دهشة يغالبها عتب. واصل. مرت علينا ثلاثة أسابيع. قاطعته. اسبقني لهناك. تفقدها أشياء أم البرحي دون حماس. ما بك يا أم قاسم. سألها جندي مازن باهتمام ودود. يبدو أنني بصدد العودة للنجف. لم يخف شعوره بالفقدان. لم يخطر لنا إنك تغادرين. أطلّت ابتسامتها الحزينة من عينيها. هو الحنين للأولاد والأحفاد. حضرها وجه ملازم عبدالكريم، الجنود وإشاعات قابلة لتأويلات، قالت راجية. لا أريد أن يعرف آخرون عن نيتي بالسفر للنجف. أردفت. أنا أتكفل بذلك في حينه. امتثل لها. حاضر. أسبوعها الأخير تملكتها رغبتها أن تتفقد الأماكن، تُطيل تأمل تفاصيلها كمن يهدف لاختزان الصور في ذاكرته، بيت محمود عباس، اطمأنت نفسها لما رأت السدرة البمباويّة وقد عادت أوراقها



خضراء داكنة، شتلات الجوري الآخذة بالنمو أكثر يتولاها نائب ضابط صادق، بيت جواد الدليشي، السدرة الملاسيّة، استعادتها لحيويتها، أغصانها ببراعم خضراء جديدة، بيت عبود الأطرش، البمبرة ونبتات الجوري.

صباح يومها ما قبل الأخير، قررت مرافقة قدم خير، جولة متأنية، الشريط الساحلي لشط العرب، هذا الامتداد المترامي للمسطح المائي، الحركة المتواترة لسطح المياه، الحيوات المحتدمة تحت، تعبٌ لصدرها شهيقها العميق، رطوبة الهواء مشوبة بشيء من زفر الأسماك، يؤلمها حدسها، أن ينطلق مدفع من هنا أو من هناك، يشتد القصف العابر فوق مياه الشط، لو تدرك سر إصرارهم على مواصلة حربهم بلا طائل.. تتذكر كلمات قالها ابنها صالح بعد نشوب الحرب بستة أشهر، كانت عائلتها تجتمع داخل عشتها أيام النجف. لا أعرف ما الحكمة من كوننا بدأنا حربنا عليهم. حدجه ابنها الأكبر قاسم بنظرة تأنيب. حاذر من ترديد كلام مثل هذا. ابتسم صالح. أنا في بيتي. ردّه قاسم. الحيطان لها آذان. أنشبوا حربهم في خريف ما قبل ثلاث سنوات، هو الخريف الآن، ما الذي جناه أي.. عودتها من جولتها، مرورها غير بعيد عن موقع خيم الجنود، شاهدت ملازم عبدالكريم يغادر خيمته، يشير لها، خفق قلبها، تبادر لها أنها مناسبة تذكيرها بيومها الأخير، ترجّلت عن ظهر قدم خير في حين خطا الآخر مقتربا. مرحبا. عيناه تنمان عن ابتسامة ودودة، هل تستغرب تسلّكه أم تتعامل مع الظرف كما هو، قال لها. لستِ مضطرة للوفاء



بكلمتك. مفردته مضطرة مؤلمة إذا أُخذت مجرّدة، جدوى أن توحي للواحد باحتمال إعفائه تجاه ما يتوجب عليه فعله غدا، إبداء التعاطف نمط إهانة موجّهة بحسن نيّة، قالت له. لك الشكر. أضافت. لكني حزمت أمري. تبددت ابتسامته من عينيه. تخاله أراد التصريح بشيء ما لكنها استدارت مبتعدة مدارية دموعها.

يعتصرك ألمك من داخلك أشبه بقبضة حديدية تنفرد بأحشائك. يا بو قاسم، لا أدري كيف تفكر، وإذا شئت أن أكون صادقة معك حقيقة قلت لك، أنا التي لا تعرف كيف تفكر لنفسها، كنت بين العسكر، معهم، أبدو وكأني واحدة منهم، قصفهم كما هي عادته، فقدان ابني الرابع جاسم، الأمل بعودته.. أنت من قال سيعود. كانت تجلس القرفصاء بمواجهة القبر. ليتك تتفهمني، خذني بصراحتي ولو بدت مزعجة لك. سكتت برهة. عند مشارف مدينة الناصرية في طريق عودتنا لهنا، الحضور البهي لأبنائك حول قبرك ذاك، مُقترح استخراج جثمانك، تعللتُ بوصية لم تصدر عنك، قلت لهم، أراد أن يُدفن في مسقط رأسه، واقع الحال أنا أردت، أبناؤنا وقفوا عاجزين مثلما هم مذهولين، ليس من طباعهم أن يعصوا لنا أمرا، ما جرى بعد ذلك تعرفه كله، ما لا تعرفه.. لم تكمل جملتها، زفرت بألم. لن أنبش قبرك ثانية، لن أحملك معي في رحلة العودة. شرد ذهنها لثوان. ما بعد تصريحك بعودة جندي جاسم لم تزرني في المنام، لا أريد معاتبتك لكني أصارحك، قلبي يحدثني، قبرك هذا هو مكانك الأنسب. لا تغضب أو تعتب، إن سألتني عني أنا بعد مفارقتك صرت



امرأة زائدة عن الحاجة، حتى لا أطيل عليك.. أنت تعرف ما انتهيت إليه. أطلّ قدم خير برأسه من باب حظيرته مُحدثا ما يشبه العطاس. ماذا هناك. تناهى لسمعها دوي محرك سيارة سالكة طريقها صوب موقع العسكر، لعلها سيارة تموينهم، أعملت ذهنها، إن كانت ستغادر غدا صباحا تلزمها رؤية جندي مازن أو نائب ضابط صادق، توصي أيا منهما بمتابعة بعض الأعمال الصغيرة، يحزنها أن تترك عريشها عند مقام سيد رجب، لكنه مآلها الذي لا مناص، يتوجب عليها أن تلفت نظر أي واحد منهم لعبوات الطرشي في منزل عبود الأطرش، هذه لكم، ما عدا ذلك عليها أن تبدأ استعدادها، أو لا تبدأه، بحوزتها حفنة نقود متبقية تستعين بها على الطريق.

عاد قدم خير أطل برأسه. ماذا هناك. مرت ثوان معدودة بدأت إثرها تسمع همهمات لأصوات رجالية آخذة تقترب. إن كان نائب ضابط صادق من بينهم، تغتنم فرصتها تبلغه وصاياها، حانت عنها نظرة للباب، اعتادت أن تتركه مواربا. مرت لحظات، تلاشت الهمهمات الرجالية. أحدهم يوقّع طرقاته، رفعت صوتها. الباب مفتوح. أطل نائب ضابط صادق برأسه. سلام يا أم قاسم. لم يوفّر لها فرصة رد تحيته، سحب رأسه، سمعته يخاطب آخر. انتظر هنا. دخل، أطبق الباب، حرص أن لا يسمعه من كان واقفا خارجا. كلّفني ملازم عبدالكريم.. عرفت منه، سوء فهم أو اتخاذ موقف متسرّع، يُفترض بالآخر أن لا يسيئ الظن.. بناء عليه هو يبدي أسفه تجاه تأنيبه القاسي لأم قاسم، لعلمها، حاول عندما رآها قبل



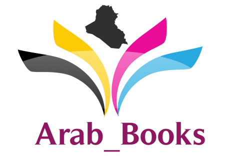
ساعات من الآن أن يوضح لها ملابسات محددة. قاطعته راجية. حدثوني بكلام واضح لي. ابتسم معتذرا، واصل. لم يكن ملازم عبدالكريم راضيا تجاه ما بدر منه رغم استبعاد الجميع لفكرة عودة جندي جاسم. ودّت لو تناشده. إلّا إثارة الآلام. سمعته يسترسل. مساء أمس تلقى اتصالا من قيادة الفرقة، سألوه إن لم يمانع من التحاق جندي جاسم بالخدمة ثانية بناء على رغبته. تسمع نائب ضابط صادق، تحبس أنفاسها. لو تعرفين فرحة ملازم عبدالكريم، رحّب مباشرة، قال لي بعد إنهائه اتصاله بالقيادة. أم قاسم كانت على حق. أزمعتْ تسأل. هل.. لم تكمل، غصّ فمها بصوتها، أفضى نائب ضابط صادق. وصل مع سيارة التموين. استماحها. لحظة. توجّه للباب فتحه، دخل جندي جاسم.

خانتها ركبتاها، تداعى جسدها أرضا، هرع إليها جندي جاسم حوّطها بذراعه اليمنى. سلامتك أمي. صوته هو هو، تنبّهت إلى أنه يعتمد يده اليمنى فقط، رأت يده اليسرى مندسّة في جيب صداره إلى جانب حقيبة جلدية صغيرة مثبتة لحزامه، مدت يدها تحسست جيبه الحاوي نهاية عظم ساعده، سألته. تؤلمك. أطلق ضحكة قصيرة، سحب رأس ساعده من جيبه، أشار لمكان البتر. أعاني ألما بأصابعي. نوّهت باستغراب يشوبه حزن. لكن أصابعك لم تعد موجودة. قال. بين آونة وأخرى ينتابني الألم أو الإحساس بالتعب في أصابعي، يُغافلني وعيي، أستعين بيدي اليمنى كي أحضن أصابع يدي اليسرى، استشرت طبيب المستشفى التعليمي، أشار لرأسي، ألمك



ينبع من هنا، بعد أشهر يستوعب ذهنك فكرة الفقدان. حالها الآن.. لا مكان للحزن، غمغمت. سلامتك. مد يده اليمنى لحقيبته الصغيرة، تناول خطافا معدنيا أنيقا موصولا بضفيرة جلدية. ها هو تعويض الكف المفقودة. انشغل لثوان، ثبت خلالها الخطاف عند نهاية عظم الساعد، قبل أن يسأل. أين وصلنا بمدبستنا. لم تتأخّر إجابتها. كنا بانتظار عودتك. هبّت واقفة. بإمكاننا متابعة عملنا..




Arab_Books

مؤلفات إسماعيل فهد إسماعيل

1- البقعة الداكنة – مجموعة قصص	1965
2- كانت السماء زرقاء – رواية	1970
3- المستنقعات الضوئية – رواية	1971
4- الحبل – رواية	1972
5- الضفاف الأخرى – رواية	1973
6- ملف الحادثة 67: رواية	1974
7- الشيّاح: رواية	1975
8- الأقفاص واللغة المشتركة: قصص	1976
9- النيل يجري شمالا (البدايات): رواية	1977
10- النيل يجري شمالا (النواطير): رواية	1978
11- الطيور والأصدقاء: رواية	1979
12- خطوة في الحلم: رواية	1980
13- النَّص: مسرحية	1981
14- القصة العربية في الكويت: دراسة	1982
15- الفعل والنقيض في أوديب سوفوكل: دراسة	1983
16- الكلمة الفعل في مسرح سعدالله ونّوس: دراسة	1985
17- النيل الطعم والرائحة: رواية	1989
18- إحداثيات زمن العزلة: الشمس في برج الحوت كتاب أول: رواية	1996



19- إحداثيات زمن العزلة: الحياة وجه آخر

كتاب ثانٍ: رواية 1996

20- إحداثيات زمن العزلة: قيد الأشياء

كتاب ثالث: رواية 1996

21- إحداثيات زمن العزلة: دوائر الاستحالة

كتاب رابع: رواية 1996

22- إحداثيات زمن العزلة: ذاكرة الحضور

كتاب خامس: رواية 1996

23- إحداثيات زمن العزلة: الأبابيليون

كتاب سادس: رواية 1996

24- إحداثيات زمن العزلة: العصف

كتاب سابع: رواية 1996

25- يحدث أمس: رواية 1997

26- سماء نائية: رواية 1998

27- بعيدا إلى هنا: رواية 1999

28- الكائن الظل: رواية 2000

29- مبدعون مغايرون: دراسة 2001

30- علي السبتي شاعر في الهواء الطلق: دراسة 2003

31- ما تعلمته الشجرة: مجتزأ من سيرة ليلى العثمان 2005

32- للحدث بقية: مسرحية 2008



33- ما لا يراه نائم: قصص	2009
34- مسك: رواية	2010
35- عندما رأسك في طريق واسمك في طريق أخرى: رواية	2011
36- في حضرة العنقاء والخل الوفي: رواية	2012
37- طيور التاجي: رواية	2014
38- سلام: مسرحية	2015
39- العرض لم يبدأ بعد: مسرحية	2015
40- الظهور الثاني لابن لعبون: رواية	2015
41- السبيليات (ما لم يرد ذكره من سيرة حياة أم قاسم): رواية	2015



تمت

23/6/2017



الجائزة العالمية للرواية العربية
INTERNATIONAL PRIZE FOR ARABIC FICTION



القائمة القصيرة
لجائزة البوكر ٢٠١٧

إسماعيل فهد إسماعيل

السبيليات

أواخر خريف عام ١٩٨٨ وردني اتصال من صديق يعمل صحفيا في جريدة الرأي العام الكويتية. خلال لقاء سابق بيننا، عرفت منك أن مسقط رأسك كان في قرية تقع جنوب مدينة البصرة العراقية.. أردت أن أختصر عليه جهده، قلت له. السبيليات. بادرني رده. اسمع.. فيما رواه.. بمناسبة انتهاء الحرب العراقية الإيرانية قبل أسابيع تلقّت جريدتهم دعوة من السلطات العراقية للاطلاع على الدمار الذي خلفته حربهم مع إياه. تابع: اختارته صحيفته كي يكون موفدها إلى هناك. جمعوا الصحفيين العرب والأجانب داخل الصالة الوحيدة لمطار البصرة/ المعقل، ثم أركبونا ثلاث طائرات مروحية، حلّقت بنا فوق الشريط الساحلي الغربي لشط العرب باتجاهه جنوبا نحو ميناء الفاو، ذُهلنا لمشاهدة غابات نخيل أصابها الذبول، تحوّل سعفها للون أصفر فاقع، الحرب التي دامت ثمانية أعوام بآثارها المدمرة على الطبيعة. فجأة غاب اللون الأصفر، كنا نحلق فوق أرض مزحومة بالأخضر، أشبه بواحة غناء عرضها لا يتجاوز كيلومترين، تبدأ من شط العرب وتنتهي عند مشارف الصحراء الغربية، بعدها مباشرة عادت سيادة الأصفر، تساءلت مشيرا صوب الشريط الأخضر: لماذا هذه الأرض وحدها.. لم أتلق إجابة ترضي فضولي، اكتفى أحد الأدلاء المرافقين، قال: هذه قرية السبيليات. ختم صديقي الصحفي حديثه. بصفتها مسقط رأسك يلزمك أن تكتشف السر..



ISBN 978-99966-94-12-7
9 789996 694127

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING
www.novapluskw.com @novakw